آثار الشيخ زيد الفياض رحمه الله (١٥)

نظرات في الشريعة

وَيليهِ المُنتخبُ مِن المَقالات

تأليف فضيلة الشيخ

زيد بن عبد العزيز الفياض

رحمه الله

(١٣٥٠-١٤١٦هـ)

دار الأوكة للنشر

نظرات في الشريعة

ويليه المنتخب من المقالات

الطبعة الأولى ١٣٨١هـ
الطبعة الثانية خاصة بدار الألوكة ١٤٣٧هـ

جميع الحقوق محفوظة

نظرات في الشريعة

ويليه المنتخب من المقالات

تأليف فضيلة الشيخ

زيد بن عبد العزيز الفياض

رحمه الله

(١٣٥٠-١٤١٦هـ)

دار الألوكة للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٠

مقدِّمة

بقلم الأستاذ الكبير عبد الله بن خميس

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣].

آياتٌ بيِّنات، غايتها الحقُّ، وهدفها التشريع والإقناع والحُجَّة.

وبُعث خاتم النبيِّين محمَّد ﷺ بشيرًا ونذيرًا للجنِّ والإنس، فكان أن بلَّغَ رسالته، وانتشرَ الإسلام، وسطعَت أضواؤه، ورفرفَت راياته، وأشاعَ العدلَ والمحبَّةَ والسَّلامَ والاطمئنانَ في أرجاء المعمورة؛ إذ اتَّسعت رُقعته في الفتوحات الإسلاميَّة الشهيرة، التي أطاحَت بدول الجهلِ والشِّرك والكفر وعبادة الأصنام والأوثان، وكان ما شاء الله لهذا الدِّين الحنيف من نصر وتمكين.

وازدهرت حضارةُ الإسلام، حتى بلغَت أوْجَ المجد

وقمَّة العزِّ؛ فكانت حضارةً زاهيةً بلغَ فيها الرقيُّ الفكريُّ والاقتصاديُّ والاجتماعيُّ مهتديًا بهديه مستوحيًا من سماحته ونُبله.

ولكن ماذا بَقِيَ لنا من كلِّ ذلك في عصرنا الراهن؟! وقد طغَت فيه موجاتُ الإلحاد والإباحيَّة، وكادَ بلاؤهما أن يقتلعَ من الكثيرين جذور الإيمان وجواهر القِيَم، وأصبحت التقوُّلات الآثمة تطعُن في هذا الدِّين من الخلف، وتقول - بهتًا وعدوانًا - بعدم مسايرته لرَكْب التطوُّر الزمنيِّ والحضاريِّ، وعدم استيعابه لما يجدُّ من الأوضاع الاجتماعيَّة ومُجرَيات الحياة التقدُّميَّة!

وفي المقارنة بين مدى صحَّة هذه التقوُّلات وبين حقيقة الشريعة السَّمحة وتعاليمها المستوعِبة ما تجده مفصَّلًا في هذا الكتاب، مدعَّمًا بالأدلَّة القاطعة والحُجَج الدامغة، التي تقطع الشكَّ، ولا تدعُ لذي إربَةٍ في القول مجالًا.

وما أحرانا حقًّا بدراسة الإسلام دراسةً تُمحِّص ما ألصقَه به الملحدون والمخرِّفون، ولا نقول في ذلك: قد كفانا المؤلِّف، بل نقول: إنَّه قد أدَّى واجبه وأراحَ

ضميره، وإنَّ على من يهمُّه الأمر ويعنيه الشأن أن يشمِّرَ عن ساعد الجدِّ، ويزيحَ عن كاهل الحقيقة ما يئنُّ تحت وطأته؛ من أكاذيبَ وتضليلات، وعداءٍ سافِر لدِّين الإسلام ومريدِيه ومعتنقِيه، ونخلُص من كلِّ ذلك إلى هذا الكتاب الذي هو بين أيدينا الآن: "**نظرات في الشَّريعة**"؛ ما هو شأنه وتفصيله وجملته وهدفه؟ وقبل كلِّ شيء يجب أن نعرف: مَن هو صاحبه؟

إنَّه الأستاذ زيد بن عبد العزيز بن فيَّاض؛ الكاتبُ المعروف والأستاذُ بكليَّة الشَّريعة بالرياض، والرَّجل الواعي المثقَّف الذي نعتزُّ به ونعتدُّ برأيه، ونضعه في المقدِّمة من أولئك القلائل الذين أوقفوا أنفسَهم على العلم والتحصيل والزيادة، ولولا خَشيةُ الإطناب والإسهاب لأوفيناه ما هو جديرٌ به؛ من تنويهٍ بفضله، وإشادةٍ بغزارة علمه، ولكنَّه في غنًى عن ذلك؛ لما يتحلَّى به من صفات التواضع وإنكار الذات.

وكتابه هذا نبعٌ من فَيض نفسه، وجدولٌ من نهر تفكيره وعلمه، وهو - أي: الكتاب - عبارة عن محاضرة بهذا العنوان ألقاها المؤلِّف في نادي كليَّتي الشَّريعة واللغة

بالرياض، ومجموعة من المقالات سبقَ لها النشر في الصُّحف والجرائد؛ تبحث في موضوعات دينيَّة واجتماعيَّة هدفها الذَّودُ عن حِياض الإسلام، وصدُّ عادية العدوِّ بدحض مفترَياته وأباطيله، وهو - فيما عدا ذلك - نَظرات ثاقبة في تعاليم الشَّريعة السَّمحة وأهدافها ومميِّزاتها.

وأكيدًا إنَّنا ونحن نتلقَّف هذا الكتابَ نتعطَّش إلى المزيد من نوعه؛ لنغرسَ في النفوس الإيمان القويَّ الراسخ؛ ليمحِّصها من تضليل المشكِّكين وعبَث الملفِّقين، الذين بدأت سمومهم بوسائلها وأساليبها الدنيئة تتغلغل في الأذهان المكدودة والنفوس المريضة، بشكلٍ خطيرٍ ملموس، فإليها إلى تلك النفوس المريضة، وإلى أولئك الباغين الملحِدين، نسوقُ هذا الكتاب، مع تقديرنا للمؤلِّف المِفضال.

عبد الله بن محمَّد بن خميس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا، وأشكره سبحانه على نِعَمِه الجمَّة وآلائه العظيمة، وأصلِّي وأسلِّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحابته وتابعيهم إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد،

فهذه محاضرةٌ كنت ألقيتُها في نادي كليَّتي الشَّريعة واللغة بالرِّياض في ٢٤/ ٧/ ١٣٨٠هـ، بعنوان "نظرات في الشَّريعة".

وقد طلب إخوانٌ كرامٌ أن تُطبعَ في كتاب، وأبدى بعضُهم مشكورًا استعداده لطبعها على نفقته لتعميم النفع بها. ورأيتُ من المناسب أن أضيفَ إليها أبحاثًا، وأشفعَها بنقولات تُناسب المَقام، وقد فعلت ذلك.

وهي - كما يراها القارئ - تبحثُ في موضوعاتٍ جديرة بالاهتمام من علماء المسلمين وناشئتهم، وإنَّه لفألٌ حسن أن نجدَ تجاوبًا من الشباب في العناية بدراسة الإسلام، دراسةً تُمَحِّص ما ألصقَه به الملحِدون

والمخرِّفون، في الوقت الذي طغَت فيه موجاتُ الإلحاد والإباحيَّة، وكادَ بلاؤهما أن يقتلعَ من الكثيرين جذور الإيمان، وجواهرَ القِيَم.

وإنَّ من واجب علماء المسلمين أن يُعنَوا بدراسة الإسلام دراسةً صحيحة، سليمةً من التقليد الأعمى، والأهواء المُضِلَّة، وأن يستخرجوا كنوزه الدفينة، ويبرزوا لآلئه التي أرادَ أعداء الإسلام إخفاءها وتشويهها؛ لينزعوا عن المحجوبين الأقنعةَ السوداء، وليُشرقَ النور وُضَّاءً في أنحاء الدنيا.

فدينُ الإسلام هو دين الله الخالد الصَّالح لكلِّ زمانٍ ومكان، وقد اعترفَ بهذه الحقيقة من فَهِمَ الإسلام فهمًا سليمًا - وإن لم يكن ممَّن يدين به - عندما تجرَّد عن التعصُّب والهوى؛ وكما قال المسيو ليون روش عن الإسلام: إنَّه دينُ المحامد والفضائل، ولو أنَّه وجدَ رجالًا يعلِّمونه الناس حقَّ التعليم، ويفسِّرونه تمام التفسير - لكان المسلمون اليوم أرقى العالمين، وأسبقَهم في كلِّ الميادين، ولكن وُجدَ بينهم - ويا لَلأسف - شيوخٌ يحرِّفون كَلِمَه، ويمسخون جماله، ويدخلون فيه ما ليس منه.

وكما تقول الدكتورة لورافيتشا الإيطاليَّة: إنَّ الناس لتتلهَّف على دين يتَّفقُ وحاجاتِهم ومصالحَهم الدُّنيويَّة، ولا يكون قاصرًا على إرضاء مشاعرهم وإحساساتهم، ويريدون أن يكونَ هذا الدِّين وسيلة لأمنهم وطمأنينتهم في الدُّنيا والآخرة، وليس هنا من دين تتوفَّر فيه هذه المزايا كلُّها بشكلٍ رائع سوى دين الإسلام؛ إنَّه ليس مجرَّد دين فحسب، بل إنَّ فيه حياةً للناس؛ لأنَّه يعلِّمهم كيف يحسنون التفكير والكلام، ويحضُّهم على فعل الخير وصالح الأعمال، ولذلك سرعان ما شقَّ طريقه إلى القلوب والأفهام.

ففي هذا العصر الذي يعيش أهله في قَلَقٍ وهَلَع، ويرون في تلك الدُّوَل القويَّة التصارُع الوحشي، وامتلاك الأسلحة الفتَّاكة والتهديد بالحروب الطاحنة - ما أحوجَ المسلمين إلى أن يُقدِّموا للعالم ذلك النور السَّاطع والبلسَم الشافي؛ ليحصلَ للعالم الهدوء والطمأنينة، كما يشهد بذلك تاريخه.

وإنَّها لمفارقةٌ عجيبةٌ أن نجدَ بين من يسمُّون أنفسهم مسلمين من يحاربون الإسلام حربًا شعواء، بمختلف الأساليب الشَّيطانيَّة الماكرة، بينما يشهد الخصوم بروعته

ومزاياه، وأنَّه الدِّين الذي يقدِّمُ للبشريَّة ما هي في حاجة إليه، وهو الصَّالح لكلِّ زمانٍ ومكان!

ثم إنَّ هذا يعطينا فكرة عن عِظَم الواجب المُلقَى على عاتق علماء المسلمين وحكَّامهم، لتعريف العالم بهذا الدِّين القويم، ونشره في أدغال إفريقيا؛ التي تعِجُّ بالمبشِّرين الصَّليبيِّين، تحرسُهم جنود المستعمِرين، وتمُدُّهم بالأموال الطائلة؛ لينشَطوا في نشر دينهم المنسوخ المحرَّف، ويغرسوا أحقادهم الدَّفينة في تلك الشعوب (الخام).

وإنَّنا لنأمُل أن تجدَ هذه الملاحظة استجابةً، وأن ينتشر الدُّعاة المصلحون في كلِّ صُقع من أنحاء العالم؛ ليدعوا الناس إلى دين الله الذي أرسلَ به مَن جعلَه (رحمة للعالمين)؛ فهو رسول البشريَّة جمعاء؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ومَن يدري فقد يعتنق الإسلام قادةٌ ومحكومون يتغيَّر بإسلامهم وجهُ التاريخ؟ وليس ذلك بمستحيل، ولنتذكَّر انتشار الإسلام السريع، وتغلغلَه في الأماكن النائية، هذا مع تقصير علمائه في نشره، وتقاعُس الحكومات المنتسبة للإسلام عن الاضطلاع بواجباتهم إزاء هذا الشأن الخطير.

ما هي الشَّريعة؟

قال في "القاموس": **الشَّريعَةُ** ما شَرَعَ الله تعالى لعباده، والظاهرُ المستقيم من المذاهب، **كالشِّرْعَةِ** بالكسر فيهما، والعَتَبَة، ومورِدُ الشَّاربة **كالمَشْرَعَة**، وتُضَمُّ راؤُها.

وفي "تهذيب الصِّحاح": **الشَّريعةُ** مَشْرَعَةُ الماء؛ وهو موردُ الشَّاربة، و**الشَّرِيعَةُ** ما شَرَعَ الله لعباده من الدِّين، و**الشَّارِعُ** الطَّريقُ الأعظم، ويقال: **شَرْعُكَ** هذا؛ أي: حَسْبُك، والناس في هذا الأمر **شَرْع**: سواء يُحرَّك ويُسكَّن، و**الشِّرْعَةُ** بالكسر الشَّرِيعة.

وفي "لسان العرب": و**الشَّريعةُ** و**الشِّراعُ** و**المَشْرَعَةُ** المواضع التي يُنحَدَر إلى الماء منها، قال الليث: وبها سُمِّي ما شَرَعَ الله للعباد **شريعة**؛ من الصَّوم والصَّلاة والحجِّ والنِّكاح وغيره. و**الشِّرْعَةُ** و**الشَّريعةُ** في كلام العرب مَشْرَعَةُ الماء؛ وهي موردُ الشَّاربة التي يشرَعها الناس فيشربون منها ويستقون، وربَّما شَرَّعوها دوابَّهم حتى تشرعَها وتشربَ منها، والعرب لا تُسَمِّيها شريعةً حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له، ويكون ظاهرًا مَعِينًا لا يُسقى بالرِّشاء، وإذا كان من السَّماء والأمطار فهو الكَرَع،

وقد أكرعوه إبِلَهم فكرعَت فيه، وسقَوها بالكَرْعِ، وشَرَعَ إبله وشَرَّعَها أوردَها شريعة الماء فشرِبَت ولم يستقِ لها، وفي المثَل: (أهوَنُ السَّقي التَّشريع)؛ وذلك لأنَّ موردَ الإبل إذا وردَ بها الشَّريعة لم يتعَب في إسقاء الماء لها كما يتعَب إذا كان الماءُ بعيدًا.

والشَّرِيعةُ موضع على شاطئ البحر تَشْرَعُ فيه الدَّوابُّ، والشَّرِيعَةُ والشِّرْعَةُ ما سنَّ الله من الدِّين وأمرَ به؛ كالصَّوم، والصَّلاة، والحجِّ، والزكاة، وسائر أعمال البرِّ، مشتَقٌّ من شاطئ البحر؛ عن كُراع، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: ٤٨]، قيل في تفسيره: **الشِّرْعَةُ** في الدِّين، والمنهاجُ: الطريق، وقيل: **الشِّرْعَةُ** والمنهاج جميعًا الطريق، والطريقُ هاهنا الدِّين، ولكنَّ اللفظ إذا اختلف أُتيَ به بألفاظ يؤكَّد بها القِصَّة والأمر؛ كما قال عَنْتَرة:

أَقوَى وَأَقفَرَ بعدَ أُمِّ الهَيثَمِ

فمعنى أقوى وأقفرَ واحدٌ على الخَلوة، إلَّا أنَّ اللفظين أُوكِّد في الخَلوة.

وقال محمَّد بن يزيد: **شِرْعَة** معناها: ابتداء الطريق، والمنهاجُ: الطَّريق المستقيم، وقال ابنُ عبَّاس: ﴿شِرْعَةَ وَمِنْهَاجًا﴾: سبيلًا وسنَّة، وقال قَتادة: ﴿شِرْعَةَ وَمِنْهَاجًا﴾: الدِّين واحد والشَّريعةُ مختلِفة.

وقال الفَرَّاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ [الجَاثِيَة: ١٨]: على دين وملَّةٍ ومنهاج، وكلُّ ذلك يُقال.

وقال القُتَيبي: ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾: على مثالٍ ومَذهَب، ومنه يُقال: شَرَعَ فلان في كذا وكذا؛ إذا أَخَذَ فيه، ومنه مَشارِع الماء: وهي الفُرَضُ التي تشرَعُ فيها الواردة، ويُقال: فلان **يَشتَرِعُ شِرعَتَه** ويَفتَطِرُ فِطرَتَه، ويَمتَلُّ مِلَّتَه؛ كلُّ ذلك من شِرعَة الدِّين وفِطرتِه.

و**شَرَعَ** الدِّين **يشرَعُه شَرْعًا** سَنَّه.

وفي التنزيل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشّورى: ١٣]، قال ابنُ الأعرابي: **شَرَعَ**؛ أي: ظهرَ، وقال في قوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشّورى: ٢١]: قال: أظهروا لهم، وقال الأزهري: معنى **شَرَعَ**: بيَّنَ وأوضَحَ.

وقيل في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشّورى: ١٣]: أنَّ نوحًا أوَّل مَن أتى بتحريم البنات والأخوات والأمَّهات.

وقوله عزَّ وجل: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الشّورى: ١٣]؛ أي: وشَرَعَ لكم ما أوحينا إليك، وما وصَّينا به الأنبياءَ قبلَك.

وقال الشاطبيُّ: إنَّ معنى الشَّريعةُ: أنَّها تحُدُّ للمكلَّفين حدودًا في أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، وهو جُملة ما تضمَّنته، وفي القرآن: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجَاثِيَة: ١٨]، وبما ذكرنا يُعلم أنَّ الشَّريعةَ شاملةٌ للاعتقادات والأحكام العمليَّة.

وإن كانت قد تَرِدُ بمعنى الفقهِ أو ما يُسمَّى بمسائل الفروع، من إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ ومنه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: ٤٨].

وما نعنيه في هذه الرِّسالة بكلمة **شريعة**، إنَّما هو بالمعنى الأوَّل؛ وهو: احتواؤُها للأصول والفروع.

الرِّسالة العالميَّة

امتازت الرِّسالة الإسلاميَّة بأنَّها رسالةٌ للناس أجمعين؛ لا فرقَ بين وثنيٍّ ويهوديٍّ ونصرانيٍّ ومجوسيٍّ وصابئٍ وبوذيٍّ وملحد، ولا فرقَ بين أبيضَ وأسودَ وأصفر، ولا فرقَ بين قومٍ وقومٍ ووطنٍ ووطن، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وفي الحديثِ الذي رواه الإمام أحمد وغيره، عن ابن عبَّاس عن النبيِّ ﷺ: «أُعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ نبيٌّ قبلي ولا أقوله فخرًا: بُعِثتُ إلى الناس كافَّةً؛ الأحمرِ والأسودِ، ونُصِرتُ بالرُّعب مسيرةَ شهر، وأُحِلَّت ليَ الغنائم، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعِلَت ليَ الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأُعطِيتُ الشفاعةَ، فأخَّرتُها لأمَّتي يوم القيامة، فهي لمَن

لا يشركُ بالله شيئًا».

ولمسلم عن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجلٌ من هذه الأمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم لا يؤمنُ بي إلَّا دخلَ النار»، ولأحمدَ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهوديٌّ أو نصرانيٌّ ثم يموتُ ولا يؤمنُ بالذي أُرسِلتُ به إلَّا كان من أصحاب النار».

خاتَم الأنبياء

لقد كان محمَّد ﷺ خاتمَ النبيِّين، وكانت رسالته للناس عامَّة، واللهُ أعلمُ حيث يجعل رسالتَه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزَاب: ٤٠].

وفي حديث الصحيحين: «مَثلِي ومَثلُ الأنبياء من قبلي كمَثل رجل بنى بيتًا، وجَمَّلَه إلَّا موضعَ لَبِنَة من زاوية؛ فجعلَ الناس يطوفون به ويَعجبون له، ويقولون: هلَّا أُضِيفَت هذه اللَّبِنَة! فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتَم النبيِّين».

الدِّين الكامل

كان نزول القرآن على النبيِّ ﷺ مُنَجَّمًا بحسَب الوقائع، وفي حجَّة الوداع في يوم عَرَفَة نزلَ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وفي ذلك اليوم خَطَبَ النبيُّ ﷺ خُطبةً عظيمةً، وكان ممَّا قالَه موجِّهًا خطابه للحاضرين: «ألا هل بلَّغت» ثلاثًا، ثم يرفع إصبعَه الكريمة إلى السماء ويقول: «اللهمَّ اشهَد».

وفي الحديثِ الصحيح: «ما بعثَ اللهُ من نبيٍّ إلَّا كان حقًّا عليه أن يدُلَّ أمَّته على خيرِ ما يعلمُه لهم، وينهاهم عن شرِّ ما يعلمُه لهم».

وقالت عائشة: مَن حدَّثك أنَّ محمَّدًا كتمَ شيئًا ممَّا أوحى الله إليه فقد أعظمَ على الله الفِريَة؛ والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائدة: ٦٧].

وقال عمر: قامَ فينا رسول الله ﷺ مُقَامًا؛ فذكرَ بدء

الخلق، حتى دخلَ أهل الجنَّة منازلَهم وأهلُ النار منازلَهم، حَفِظَ ذلك من حَفِظَه ونَسِيَه من نَسِيَه.

وقالت عائشة: لو كان محمَّد كاتمًا شيئًا من القرآن لكتمَ هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزَاب: ٣٧].

وفي الحديث: «تركتُكم على المَحَجَّة البيضاء؛ ليلُها كنهارها، لا يَزيغ عنها بعدي إلَّا هالكٌ».

وفي حديثٍ آخر: «إنِّي تاركٌ فيكم ما إن تمسَّكتُم به لن تضلُّوا بعدي؛ كتابَ الله وسنَّتي».

الشَّريعة الخالدة

إنَّ الله تعالى قد حَفِظَ شريعة الإسلام عن الانقراض؛ فصمدَت رغمَ مكايد الزنادقة والملحِدين، وسَلِمت من التحريف والتبديل الذي وقعَ في الشرائع قبلَها، وكلُّ مَن رامَ تحريفًا أو عبثًا كُشِفَ أمرُه، وآبَ بالخسران المبين.

وكان من فضل الله على عباده بعد إكمال دينه أن ضَمِنَ لهم حفظَ كتابه هذا من التحريف والتبديل والنِّسيان، والزِّيادة والنُّقصان؛ فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩]، وعَصَمَ أمَّة محمَّد خاتَم النبيِّين أن تضِلَّ كلُّها عنه كما ضلَّت الأُمم قبلَهم.

فإن كانَ ﷺ قد أخبرَ بما أطلعَه الله عليه من مستقبلها أنَّهم سيتَّبعون سَنَنَ من قبلَهم من اليهود والنصارى - فقد أخبرَ أيضًا بأنَّه لا بُدَّ أن يبقى بعضهم على الحقِّ؛ ليكونوا حجَّةَ الله على خلقه؛ فقالَ ﷺ: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين حتى يأتيَهم أمرُ الله وهم ظاهرون»؛ رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم عن المُغيرة، ورواه الحاكم عن عمرَ بسندٍ صحيح على شرط مسلم بلفظ: «لا تزالُ طائفةٌ من

أمَّتي ظاهرين على الحقِّ إلى قيام الساعة»، وابنُ ماجه عن أبي هريرة بلفظ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي قوَّامةً على أمر الله لا يضرُّها مَن خالفَها»؛ وهو صحيح أيضًا، وروى مسلمٌ من حديث جابر بن سَمُرَةَ مرفوعًا: «لن يبرَحَ هذا الدِّين قائمًا يُقاتل عليه عصابةٌ من المسلمين حتى تقومَ السَّاعة»[1].

وقال النوويُّ في قوله ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي على الحقِّ ظاهرين»: يجوزُ أن تكونَ الطائفة جماعةً متعدِّدةً من أنواع المؤمنين ما بين شُجاعٍ وبَصيرٍ بالحرب، وفقيهٍ ومحدِّثٍ ومفسِّر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمِعين في بلدٍ واحد، بل يجوز اجتماعهم في قُطرٍ واحد وافتراقُهم في أقطار الأرض، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أوَّلًا فأوَّلًا، إلى ألَّا يبقى إلَّا فرقةٌ واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاءَ أمر الله. اهـ ملَّخصًا مع زيادةٍ فيه؛ قاله الحافظ.

(١) "الوحي المحمَّدي" لمحمَّد رشيد رضا (ص١٩٤).

المسلمون إخوة

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المَائدة: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المُمتَحنَة: ١]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المَائدة: ٥٤]، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هُود: ٤٥]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التّوبَة: ٧١].

وفي الحديث الصَّحيح: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيان يشُدُّ بعضُه بعضًا»؛ وشبَّكَ الرَّسولُ ﷺ بين أصابعه، وفي

حديثٍ آخر: «مثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم كمثلِ الجَسدِ الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجَسَدِ بالسَّهَر والحُمَّى».

لقد كان الإسلام دينًا عامًّا فلم يختصَّ بقوم أو وطن، وجعلَ الوَحدة الإسلاميَّة مَطْلبًا مهمًّا، ونبَّه على هذه الوَحدة ورغَّب فيها في نصوص كثيرة جدًّا، وفي نواحٍ عمليَّة جَليَّة للعِيان لمن تدبَّرَ وعَقَل؛ فهم يعبدون ربًّا واحدًا، ويتَّجِهون لقِبلة واحدة، من كلِّ أنحاء الدُّنيا، ويتساوَون في صيام شهر رمضان، وفي الحجِّ، وفي كلِّ ذلك يجتمع الفقير مع الغني، والشَّريف مع الوضيع، في مظهر مساواة حقًّا رائعة، وهكذا دَواليك.

ولذا لا عجبَ أن جاءَ الإسلام بنبذ العَصَبيَّة القبليَّة والنُّعَرات التي تشتِّتُ الأمَّة الإسلاميَّة، ودعا إلى وَحدة إسلاميَّة يتعاون أفرادُها في سبيل الخير.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أجل، إنَّها وَحدةٌ إسلاميَّةٌ لا فضلَ فيها لعربيٍّ على عجمي، ولا لأبيضَ على أسودَ إلَّا بالتَّقوى؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وروى أبو داودَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ قد أذهبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّة وفخرَها بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ، أو فاجرٌ شقيٌّ، أنتم بنو آدمَ وآدمُ من تراب، ليَدَعَنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام إنَّما هم فَحْمٌ من فَحم جهنَّم، أو ليكُونُنَّ أهونَ على الله من الجِعْلان التي تدفع بأنفها النَّتْن».

قال ابنُ تيميَّة: حديثٌ صحيح.

وروى أبو داودَ أيضًا عن جُبَير بن مُطْعِم أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ليس منَّا من دعا إلى عصبيَّة، وليس منَّا من قاتلَ على عصبيَّة، وليس منَّا من ماتَ على عصبيَّة»، وفي الصحيحين عن جابر قال: غزَوْنا مع رسول الله ﷺ وقد ثابَ معه ناسٌ من المهاجرين حتى كَثُرُوا، وكان من المهاجرين رجلٌ لعَّاب، فكَسَعَ - ضربَه على دُبُره استهزاءً - أنصاريًّا، فغضبَ الأنصاريُّ غضبًا شديدًا حتى تداعَوا، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ! وقال المهاجريُّ:

يا لَلمهاجرين! فخرجَ النبيُّ ﷺ فقال: «ما بالُ دعوى الجاهليَّة؟!»، ثم قال: «ما شأنُهم؟»، فأخبروه بكَسْعَةِ المهاجريِّ للأنصاريِّ، قال: فقال النبيُّ ﷺ: «دَعوها فإنَّها مُنتِنَة».

وروى أحمد عن عُقبة بن عامر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أنسابكم هذه ليست بمَسبَّةٍ على أحد؛ كلُّكم بنو آدم طَفُّ الصَّاع لم تَملَؤوه، ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلَّا بدين وتقوى، وكفى بالرَّجُل أن يكونَ بَذِيًّا بخيلًا فاحشًا»، ورواه ابن جرير بلفظ: «الناس لآدمَ وحوَّاء طَفُّ الصَّاع لم يَملَؤوه، إنَّ الله لا يسألُكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يومَ القيامة، إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكُم».

إنَّ على المسلمين أن يقرُّوا أواصر المودَّة، ويَسعَوا لتحقيقِ الوَحدة.

أمَّا الدَّعوة إلى العصبيَّات القوميَّة فتلك نُعَراتٌ جاهليَّة، وكثيرٌ من الدُّعاة للقوميَّات إنَّما يقصدون من ذلك إزاحةَ الدِّين من حسابهم، وبالتالي إضعافه في نفوس المسلمين، والعرب بصفةٍ خاصَّة، وفي هذا الشرُّ المستطير.

كتبَ الأستاذان الدكتور عمر فَرُّوخ والدكتور مصطفى الخالدي في كتابهما "التبشير والاستعمار في البلاد العربيَّة" (ص١٧٩) ما يأتي:

«جميعُ الحركات القوميَّة التي قامت في البلاد العربيَّة اتَّسمَت في أوَّل أمرها بميلٍ بارزٍ إلى التسامح الدِّيني، ثم إنَّ هذا التسامح بدأ يتطوَّر حتى انتهى في أيَّامنا هذه ميلًا ظاهرًا عن الدِّين، ثم ظهرَ بوضوح أنَّ هذه الحركات القوميَّة تَرمِي إلى إضعاف الشُّعُور الإسلاميِّ خاصَّة بين البلاد الإسلاميَّة، وإلى قصر الصِّلات بين بلادنا على العنصر القوميِّ وحدَه، فالصِّلةُ بين سورية ولبنان ومصرَ والجزائر ومَرَّاكُش، تقوم في رأي الأحزاب العربيَّة القوميَّة على العروبة أو على اللغة العربيَّة، وعلى شيءٍ من التاريخ العربيِّ مجرَّدًا من كلِّ صلةٍ به بالإسلام. . . . إلخ».

إنَّ الإسلامَ يدعو لوَحدةٍ إسلاميَّةٍ واسعة، والقرآنُ لا يستعمل هذه الكلمة (الدِّين) في معنًى ضيِّقٍ محدود؛ بل يُطلقها على معنًى شامل جامع وأوسعَ بكثير ممَّا يتصوَّره الناس عامَّة، فالمرادُ بمنهاج الحياة منهاج الحياة بأجمعها، لا منهاج فرع من فروعها أو ناحية من نواحيها،

وكذلك ليس المقصود أنَّه منهاج لحياة كلِّ فردٍ من الكتلة البشريَّة على حِدَةٍ فحسب؛ بل هو منهاجٌ كافلٌ للمجتمع البشريِّ أيضًا بأسره، وكذلك ليس معناه أنَّه منهاجٌ لحياةِ قُطر خاصٍّ أو أمَّة بعينها أو عصر معيَّن؛ بل المرادُ أنَّه منهاجٌ عمليٌّ عامٌّ جامع، محيطٌ بجميع نواحي الحياة البشريَّة، الفرديَّة منها والجماعيَّة، ولا يختصُّ بقُطر دونَ قطر، أو زمن دونَ زمن، أو أمَّة دونَ أمَّة[1].

(١) "الدِّينُ القيِّم" لأبي الأعلى المودودي (ص٤).

الدِّين يُسر

يتَّسمُ الدِّين الإسلاميُّ باليسر والسُّهولة، فليس فيه آصارٌ وأغلال، ولا تكليفُ ما لا يُطاق.

وفي القرآن الكريم في صفة النبيِّ ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآية، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفي دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾، وفي "صحيح مسلم" عن النبيِّ ﷺ: «قال الله: قد فعلتُ».

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]،

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النِّسَاء: ٢٨]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المَائدة: ٦].

وفي الحديث الذي رواه أحمد: «بُعِثتُ بالحنيفيَّة السَّمْحَةِ»، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحُجرَات: ٧]، وفي الحديث: «عليكم من الأعمال ما تُطِيقون؛ فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتى تَملُّوا»، وما خُيِّرَ ﷺ بين شيئين إلَّا اختارَ أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

وفي حديث قيام رمضان: «أمَّا بعد، فإنَّه لم يخفَ عليَّ شأنُكم، ولكنِّي خَشيت أن تُفرَضَ عليكم صلاةُ الليل فتَعجِزوا عنها».

وفي حديث الحَوْلاء بنت تُوَيْت حين قالت عائشةُ للنبيِّ ﷺ: هذه الحَوْلاء بنت تُوَيْت زعموا أنَّها لا تنام الليل! فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لا تنامُ الليل! خُذوا من العمل ما تُطيقون، فواللهِ لا يسأم الله حتَّى تسأموا».

وعن أنس قال: دخل رسولُ الله المسجد وحبلٌ ممدودٌ بين ساريتين، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: حبلٌ

لزينبَ تصلِّي فإذا كَسِلَت أو فَتَرت أمسكت به، فقال: «حُلُّوه، ليُصلِّ أحدُكم نَشاطَه فإذا كسِلَ أو فتَرَ قعَد».

وعن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال: «هَلَكَ المُتَنطِّعُون»، قالها ثلاثًا؛ رواه مسلم، والمتنطِّعون: المتشدِّدون في غير موضع التَّشديد.

وعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ هذا الدِّين يُسرٌ، ولن يُشادَّ هذا الدِّينَ أحدٌ إلَّا غلبَه؛ فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوة، والرَّوْحة، وشيءٍ من الدُّلْجَة»، وفي رواية: «سَدِّدوا، وقارِبوا واغْدُوا، ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلْجَةِ، والقَصْدَ القَصْدَ تَبلُغوا».

وفي الصحيحين عن أنس قال: جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبيِّ ﷺ؛ يسألون عن عبادة النبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبروا كأنَّهم تقالُّوها، وقالوا: أين نحن من النبيِّ ﷺ، وقد غُفِرَ له ما تَقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟! قال أحدُهم: أمَّا أنا فأصلِّي الليلَ أبدًا، وقال الآخرُ: وأنا أصومُ الدَّهر أبدًا ولا أُفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزلُ النساء فلا أتزوَّج أبدًا، فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قُلتم كذا وكذا؟ أما واللهِ إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنِّي

أصومُ وأُفطرُ، وأصلِّي وأرقُد، وأتزوَّج النِّساء، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي».

وقال النبيُّ ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «ألم أُخْبَر أنَّك تصوم النَّهار وتقوم الليل؟!»، قلت: بلى يا رسولَ الله، قال: «فلا تفعل، صُم وأفطِر، ونَم وقُم؛ فإنَّ لجسدك عليك حقًّا، وإنَّ لعينَيك عليك حقًّا، وإنَّ لزوجك عليك حقًّا، وإنَّ بحَسْبِك أن تصومَ في كلِّ شهر ثلاثة أيَّام، فإنَّ لك بكلِّ حسنة عشرُ أمثالها؛ فإنَّ ذلك صيام الدَّهر»، وفي رواية: «وإنَّ لولدك عليك حقًّا».

وعن ابنِ عبَّاس قال: بينما النبيُّ ﷺ يخطُب إذا هو برجلٍ قائم في الشَّمس، فسألَ عنه، فقالوا: أبو إسرائيل؛ نذرَ أن يقومَ في الشَّمس ولا يقعُد، ولا يستظلُّ، ولا يتكلَّم، ويصوم، فقال النبيُّ ﷺ: «مُروهُ فليتكلَّم وليستظلَّ وليقعُد، وليُتمَّ صومَه»؛ رواه البخاري.

وقال ﷺ لأميرَيه معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لمَّا بعثَهما إلى اليمن: «بشِّرا ولا تُنفِّرا، ويسِّرا ولا تُعسِّرا، وتطاوعا ولا تختلِفا».

وقال النبيُّ ﷺ لمعاذ: «أنت فتَّان! أو فاتنٌ أنت!»

ثلاث مرَّات «فلولا صلَّيتَ بـ(سبِّحِ اسم ربِّك الأعلى)، و(الشَّمس وضحاها)، و(الليل إذا يغشى)؛ فإنَّه يصلِّي وراءك الكبير والضَّعيف وذو الحاجة»، وكان الشَّاكي له رجلٌ أقبل بناضِحَين وقد جنحَ الليلُ، فوافقَ معاذًا يصلِّي، فترك ناضحَيْه وأقبل إلى معاذ، فقرأ (سورة البقرة) و(النِّساء)، فانطلقَ الرجل ..... الحديث.

وقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لأسمعُ بكاء الصبيِّ فأتجوَّزُ في صلاتي».

وروت عائشة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ هذا الدِّين متينٌ فأوغِلوا فيه برفق، ولا تُبغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإنَّ المُنبَتَّ لا أرضًا قطعَ ولا ظهرًا أبقى».

وقالت عائشة: نَهاهم النبيُّ ﷺ عن الوِصال رحمةً لهم، قالوا: إنَّك تُواصل، فقال: «إنِّي لستُ كهيئتكم؛ إنِّي أَبيتُ يُطعمني ربِّي ويَسقيني».

وذكر البخاريُّ عن أبي جُحَيفة قال: آخَى النبيُّ ﷺ بين سلمانَ وأبي الدرداء، فزارَ سلمانُ أبا الدَّرداء، فرأى أمَّ الدَّرداء - وهي زوجته - مُتَبذِّلةً، فقال لها: ما شأنُك؟ قالت: أخوك أبو الدَّرداء ليس له حاجةٌ في الدُّنيا، فجاءَ

أبو الدَّرداء فصنعَ له طعامًا، فقال له: كُل، قال: فإنِّي صائم، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكلَ! فأكل، فلمَّا كان الليلُ ذهبَ أبو الدَّرداء يقوم، فقال: نَم، فنام، ثم ذهبَ ليقومَ، فقال: نَم، فلمَّا كان من آخر الليل، قال سلمان: قُمِ الآن، فصَلَّيَا، فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، ولنفسِكَ عليك حقًّا، ولأهلِكَ عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأتى النبيَّ ﷺ فذَكَر له ذلك، فقال النبيُّ ﷺ: «صَدَق سلمانُ».

وروى الحاكمُ عن أبي الدَّرداء: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما أَحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّمَ فهو حرام، وما سَكَتَ عنه فهو عَفْوٌ، فاقبَلوا من الله عافيتَه، فإنَّ الله لم يكن لينسى شيئًا»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]؛ قال الحاكمُ: صحيحُ الإسناد.

وفي الصحيح عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتُكم به فأتُوا منه ما استطعتم، فإنَّما أهلكَ الذين من قبلِكم كثرةُ مسائلهم، واختلافُهم على أنبيائهم».

وفي روايةٍ لمسلم عن أبي هريرة، قال: خطبَنا

رسولُ الله ﷺ فقال: «أيُّها الناس، قد فَرَضَ الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا»، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسولَ الله؟ فسكتَ حتى قالَها ثلاثًا، فقال رسولُ الله ﷺ: «لو قلتُ: (نعم) لوجبَت، ولَمَا استطعتُم»، ثم قال: «ذَرُوني ما تركتُكم؛ فإنَّما أهلكَ مَن كان قبلَكم كثرةُ مسائلهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدَعُوه»، وخرَّجه الدارَقُطني، وقال فيه: فنَزَل قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠١].

وفي الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أعظمَ المسلمين في الإسلام جُرمًا مَن سألَ عن شيءٍ لم يُحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»، وفي حديث أبي ثَعْلَبَة: «وسَكَتَ عن أشياءَ رحمةً لكم غيرَ نِسيان، فلا تبحثوا عنها».

وروى أبو داود، عن ابن عبَّاس، قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أختي نذرَت أن تحجَّ ماشية، فقال: «إنَّ الله لا يصنع بشَقاءِ أُختك شيئًا، فلتحُجَّ راكبة، ولتُكفِّر عن يمينها».

وروى ابنُ جرير عن أنس، قال: رأى رسولُ الله ﷺ

رجلًا يُهادَى بين رجلَين، فقال: «إنَّ الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا نفسَه!»، قالوا: يا رسولَ الله، إنَّه نَذَر! قال: «اركَبْ، فعليكَ بَدَنَة».

وروى ابنُ جرير أيضًا عن عَطاء بن يَسار، قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبِرني عن صِفَة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجَل؛ والله إنَّه لموصوفٌ في التوراة كصِفَته في القرآن: (يا أيُّها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا، وحِرزًا للأُميِّين، أنتَ عبدي ورسولي، اسمكُ المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّابٍ في الأسواق، ولا يَجزي بالسيِّئة السيِّئةَ، ولكن يعفو ويصفَح، ولن يقبضَه الله حتى يُقيمَ به الملَّة العوجاءَ بأن يقولوا: لا إله إلَّا الله، ويفتحَ به قلوبًا غُلفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُميًا)؛ رواه البخاري.

وأمثال هذه النصوص في القرآن والسنَّة وكلام السَّلف كثيرٌ لا يمكن حصرُه؛ ممَّا لا مجالَ معه للشكِّ في يُسر هذه الشريعة، وسماحتِها وشُمولها.

وهكذا نرى من تلك الآيات والأحاديث أنَّ الله الرحمنَ الرحيم، والعالِمَ بتفاوت الناس صِحَّة ومَرَضًا،

وقوَّةً وضعفًا - رفعَ عنَّا الحَرَج ودَفعَ المشقَّة، عن الناس جميعًا بعامَّة، وعن المرضى والمصابين بخاصَّة.

ولرَفع الحَرَج ودَفع المشقَّة عنَّا مظاهرُ كثيرةٌ؛ منها ما هو في العبادات، ومنها ما هو في المعاملات، ومنها ما هو في العقوبات وما يتَّصل بها، ولنذكر مثلًا يوضِّح كُلًا من هذه النواحي:

ففي العبادات: نرى أوَّلًا عدمَ كثرةِ التكاليف التي جاءت بالقرآن خاصَّة بها، حتى صارَ من اليسير القيامُ بها دونَ عَنَتٍ ولا مشقَّة، كما نرى إباحةَ قَصرِ الصَّلاة حالَ السَّفر، والفِطرِ للصائم إذا كان مريضًا، أو على سَفَر، وهذا نجده منصوصًا عليه في القرآن، وإباحةَ التيمُّم بدلَ الوضوء للصلاة لمَن لم يجدِ الماء، أو كان في استعماله ضررٌ به، وتناولَ المحرَّمات في الاضطرار.

بل إنَّ الله لم يفرِض علينا الصَّومَ إلَّا شهرًا واحدًا في العام، وهذا لِما يعلمه الله فيه من جَهد الجسم والنَّفس، ومع ذلك أباحَ الفطرَ لمَن يشقُّ عليه الصَّوم.

وفي الحَجَّ كثيرٌ من التكاليف البدنيَّة والماليَّة، وفي ذلك - بلا ريبٍ - مَشقَّةٌ على كثيرٍ من الناس، ولهذا لم

يَفرِضه إلَّا على مَن استطاعَ إليه سبيلًا، والأمرُ كذلك في الزكاة، فلم يفرِضها إلَّا على القادر الذي يفيض مالُه عن حاجته[١]، وجعلَها العُشرَ أو نصفَ العُشر فقط[٢]، وهذه نِسبةٌ تقلُّ كثيرًا عن أنواعٍ من الضرائب التي تجبيها الحكوماتُ الحديثة هذه الأيَّام.

وفي ناحية المعاملات: نجد اليُسر شاملًا؛ فليس هناك إجراءاتٌ رسميَّة، أو شكليَّة يجب اتِّباعها ليكونَ العَقدُ صحيحًا، كما كان الأمرُ عند الرُّومان؛ بل يكفي في هذا رغبةُ المتعاقدين فقط - كما هو معروف.

ومن باب التيسير في المعاملات أيضًا: ابتناءُ كثيرٍ من الأحكام على العُرف الصحيح شرعًا، وفي هذا ملاحظةٌ لاختلاف العُرف والعوائد، باختلاف المكان والزمان.

وفي باب العقوبات: نجد أنَّ منها ما يُسمَّى في الفقه بالحَدِّ، وهي عقوبات الزِّنى والقَذْف، والسَّرقة وشرب

---

(١) لعلَّ مُراده مَن ملكَ نِصابًا، وإن لم يفِضِ مالُه عن حاجته، ولكنَّه عبَّرَ بالغالب؛ لأنَّ الغالب على أهل الزكاة اتِّصافهم بأنَّ أموالهم تفيض عن حاجتهم.

(٢) في العبارة قصور، والصَّواب: أنه جعلها العُشر، ونصف العُشر، وربع العُشر، وأقلَّ من ذلك في بعض الأحيان.

الخمر؛ صيانةً للعِرض والنَّسل، والمال والعقل، وفي هذا نجد الرسول ﷺ يقول: «ادرَؤوا الحُدودَ بالشُّبهات ما استطعتُم»، وفي بعض الرِّوايات يقول: «ادرَؤوا الحُدودَ عن المسلمين ما استطعتُم، فإن وجدتُّم للمسلم مَخرجًا، فخلُّوا سبيله، فإنَّ الإمامَ لَأن يخطئَ في العفو خيرٌ من أن يُخطئ في العقوبة».

ولذلك رُويَ أنَّ النبيَّ ﷺ أُتيَ بلِصٍّ قد اعترفَ بالسَّرقة، ولم يوجَد معه متاعٌ، فقال له: «ما إخالُكَ سَرقْتَ!»، قال: بلى، فأعادَ عليه مرَّتين أو ثلاثًا، فأمرَ به فقُطِع.

ولذلك أيضًا يسقطُ الحدُّ عند حدوث المجاعة، ومَن سرقَ من مالٍ له فيه شُبهة، كمَن سرقَ من بيت المال.

هذا، ومن دلائل اعتبار التيسير في التشريعات مِن أُسس الشَّريعة الإسلاميَّة: أنَّ الله - تعالت حِكمتُه - تفضَّلَ ورفعَ عنَّا تكاليفَ كثيرةً شاقَّة، وعقوباتٍ شديدةً ضربَها على اليهود؛ جزاءَ بَغيِهم وعدوانهم؛ وفي ذلك نزلت هذه الآيات: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النِّسَاء:

١٦٠]، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠] الآية.

وروى الإمامُ أحمد والترمذيُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أنتم تُوفون سبعين أمَّة، أنتم خَيرُها وأكرمُها على الله»، وفي البخاريِّ عن أبي سعيد، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُدعَى نوحٌ يومَ القيامة، فيُقال له: له بلَّغتَ؟ فيقول: نعم، فيُدعَى قومُه فيُقال لهم: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير! وما أتانا من أحد! فيُقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمَّدٌ وأمَّتُه، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] قال: والوسَطُ: العَدْل، فتُدعَون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهدُ عليكم».

إنَّها الشَّريعةُ القويمة، أكمل شريعةٍ نزلت من السَّماء على أمَّةٍ هي أشرفُ الأُمم، ورسولُها أفضلُ الرُّسل.

قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة: «ودِينُ الإسلام وسَطٌ بين

الأطراف المتجاذِبة؛ فالمسلمون وسطٌ في التوحيد بين اليهود والنصارى؛ فاليهودُ تصف الربَّ بصفات النَّقص، التي يختصُّ بها المخلوق، ويُشبِّهون الخالقَ بالمخلوق؛ كما قالوا: إنَّه بخيل! وإنَّه فقير! وإنَّه لمَّا خلقَ السَّمواتِ والأرض تعبَ فاستراح!

وهو سبحانه الجَوَاد الذي لا يبخل، والغنيُّ الذي لا يحتاج إلى غيره، والقادرُ الذي لا يمَسُّه لُغُوب، والقدرة والإرادة والغنى عمَّن سواه هي صفاتُ الكمال التي تستلزم سائرَها.

والنَّصارى يَصفون المخلوق بصفاتِ الخالق التي يختصُّ بها، ويشبِّهون المخلوق بالخالق؛ حيث قالوا: إنَّ الله هو المسيحُ ابن مريم، وإنَّ الله ثالث ثلاثة، وقالوا: المسيح ابن الله، و﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾.

فالمسلمون وحَّدوا الله، ووصفوه بصفات الكمال، ونزَّهوه عن أن يُماثلَه شيء من المخلوقات في شيء من الصِّفات، فهو موصوفٌ بصفاتِ الكمال لا بصفاتِ

النَّقص، وليس كمِثْلِهِ شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

وكذلك في النُّبوَّات؛ فاليهودُ تقتل بعضَ الأنبياء، وتستكبرُ عن اتِّباعهم، وتُكذِّبهم وتتَّهمهم بالكبائر، والنصارى يجعلون مَن ليس بنبيٍّ ولا رسولٍ نبيًّا ورسولًا، كما يقولون في الحَواريِّين: إنَّهم رسلٌ، بل يطيعون أحبارَهم ورهبانَهم كما تُطاع الأنبياء، فالنصارى تصدِّقُ بالباطل واليهود تُكذِّبُ بالحقِّ.

ولهذا كان في مُبتدِعةِ أهل الكلام شَبهٌ من اليهود، وفي مُبتدِعةِ أهل التعبُّد شَبَهٌ من النصارى، وآخرُ أولئك الشَّكُّ والرَّيْب، وآخرُ هؤلاءِ الشَّطحُ والدَّعاوى الكاذبة؛ لأنَّ أولئك كذَّبوا بالحقِّ فصاروا إلى الشكِّ، وهؤلاءِ صَدَّقوا بالباطل فصاروا إلى الشَّطح، فأولئك ﴿كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، وهؤلاءِ ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾.

فمُبتدِعةُ أهل العلم والكلام طلبوا العلم بما ابتدعوه ولم يتَّبعوا العلمَ المشروع، ويعملوا به، فانتهَوا إلى الشكِّ

المُنافي للعلم بعد أن كان لهم علمٌ بالمشروع، لكن زاغوا فأزاغَ اللهُ قلوبَهم، وكانوا مغضوبًا عليهم، ومُبتدِعةُ العبَّاد طلبوا القُربَ من الله بما ابتدعوه في العبادة، فلم يحصل لهم إلَّا البُعد منه، فإنَّه ما ازدادَ مبتدع اجتهادًا إلَّا ازدادَ من الله بُعدًا، والبُعدُ من الرَّحمة هو اللَّعنةُ وهو غاية النصارى.

وأمَّا الشَّرائع فاليهودُ منَعوا الخالق أن يبعثَ رسولًا بغير شريعة الرَّسول الأوَّل، وقالوا: لا يَجوز أن ينسخَ ما شرعه، والنصارى جَوَّزوا لأحبارهم أن يُغيِّروا من الشَّرائع ما أرسلَ الله به رسوله، فأولئك عَجَّزوا الخالق، ومنعوه ما تقتضيه قدرته وحكمته في النُّبوَّات والشرائع، وهؤلاء جوَّزوا للمخلوقِ أن يغيِّرَ ما شرعَه الخالق، فضاهَوا المخلوق بالخالق.

وكذلك في العبادات، فالنصارى يعبدونه ببِدَعٍ ما أنزلَ الله بها من سلطان، واليهودُ مُعرضون عن العبادات، حتى في يوم السبت الذي أمرَهم الله أن يتفرَّغوا فيه لعبادته، إنَّما يشتغلون فيه بالشهوات، فالنصارى مُشركون به، واليهودُ مُستكبرون عن عبادته، والمسلمون عبدوا الله وحدَه

بما شرع، ولم يعبدوه بالبِدَع.

وهذا هو دين الإسلام الذي بعثَ الله به جميعَ النبيِّين؛ وهو أن يستسلمَ العبدُ لله لا لغيره، وهو الحنيفيَّة دين إبراهيم، فمن استسلمَ له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وكذلك في أمر الحلال والحرام في الطَّعام واللِّباس، وما يدخل في ذلك من النَّجاسات؛ فالنصارى لا تُحرِّم ما حرَّمه الله ورسوله، ويستحلُّون الخبائث المحرَّمة؛ كالمَيتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزير، حتى إنَّهم يتعبَّدون بالنجاسات كالبولِ والغائط، ولا يغتسلون من جَنابة، ولا يَتَطهَّرون للصلاة، ولمَّا كان الراهبُ عندَهم أبعدَ من الطَّهارة وأكثرَ مُلابسة للنَّجاسة - كان مُعظَّمًا عندهم.

فاليهودُ حُرِّمت عليهم طيِّبات أُحلَّت لهم، فهم يحرِّمون من الطيِّبات ما هو منفعة للعباد، ويجتنبون الأمور الطَّاهرة مع النَّجاسات، فالمرأةُ الحائض لا يأكلون معها

ولا يُجالسونها، فهم في آصارٍ وأغلالٍ عُذِّبوا بها، وأولئك يتناولون الخبائث المُضِرَّة، مع أنَّ الرُّهبان يحرِّمون على أنفسهم طيِّبات أُحلَّت لهم، فيحرِّمون الطَّيِّبات ويُباشرون النَّجاسات.

وهؤلاءِ يحرِّمون الطَّيِّبات النَّافعة، مع أنَّهم من أخبثِ الناس قلوبًا وأفسدهم بواطن، وطهارةُ الظاهر إنَّما يُقصد بها طهارة القلب، فهم يُطهِّرون ظواهرهم وينجِّسون قلوبهم[1]، والمسلمون يُطَهِّرون قلوبهم وظواهرهم، ويتناولون الطيِّبات، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢]».

وقال الشيخ أيضًا: «والإسلامُ الذي هو دين الله في كلِّ زمانٍ هو ما أمرَ الله به في ذلك الزمان، فكانَ من الإسلام في أوَّل الهجرة صلاةُ المسلمين إلى بيت المقدس بضعةَ عشرَ شهرًا، ثم لمَّا صُرِفت القبلة، وأُمروا أن يستقبلوا الكعبة، كان استقبالُ الكعبة من الإسلام، واستقبالُ بيت المقدس حينئذٍ خروجًا عن الإسلام،

(١) "منهاج السنَّة" لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (٣/ ٤١).

وكذلك لمَّا أرسلَ موسى كان طاعةُ الله فيما أمر به من السبت وغيره هو الإسلام، فلمَّا بعثَ المسيح كان ما أمر به على لسانه هو الإسلام.

قال عِكْرِمَة وغيره: لمَّا أنزلَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، قالت اليهودُ والنصارى: فنحنُ مسلمون؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فبيَّن أنَّ من تمام الإسلام طاعتَه فيما فرضَ من حجِّ بيته، وإلَّا فمَن كفرَ بالحجِّ فلم يحجَّه برًّا ولا تركه إثمًا - لم يكن مسلِّمًا مطيعًا لله ورسوله.

وتنوُّع شرائع الأنبياء ومناهجهم لا يَمنعُ أن يكونَ دينهم واحدًا وهو الإسلام، كتنوِّعِ شريعة النبيِّ - ﷺ؛ لأنَّه قال: «إنَّا - معشرَ الأنبياء - دينُنا واحد»، فإنَّ فيها ناسخًا ومنسوخًا، ومع هذا فدينُه واحد وهو الإسلام.

وهذا تحقيقُ ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّا معشرُ الأنبياء دينُنا واحد، إنَّ أولى الناس بابن مريم لأنا؛ لأنَّه ليس بيني وبينه نبيٌّ»، ولهذا ترجَمَ البخاري: باب ما جاء في أنَّ دين

الأنبياء واحد؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾[الشورى: ١٣].

ولهذا كان من تمام الإيمان: الإيمانُ بجميع الرُّسل والكتب؛ فالرسول الأوَّل يصدِّق بالثاني، والثاني يصدِّق بالأوَّل، كما أخبرَ في القرآن أنَّ محمَّدًا ﷺ مُصَدِّقٌ بجميع الرُّسل والكتب قبلَه، وفرضَ عليه وعلى أمَّته الإيمان بذلك كلِّه، فقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]» اهـ[1].

---

(١) "نظريَّة العقد" لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (ص٧-٨).

شهادة المستشرقين

وهنا نحبُّ أن نُوردَ جملةً من مقالات المستشرقين، الذين درسوا الإسلام، فقالوها صريحةً: إنَّ هذا هو الدِّين الصحيح الذي يتمشَّى مع كلِّ زمانٍ وكلِّ عصر.

ومن عَجَبٍ أن نجدَ من بعض من ينتمون للإسلام من يشنُّها حربًا لا هَوادةَ فيها على الإسلام، ويتمنَّون إقصاءه عن الحياة!

فهم أعداءٌ ألدَّاءُ في ثياب أصدقاء، أمَّا أولئك المستشرقون، فقد قالَ منهم من أنصفَ الحقيقة، والحقُّ ما شهدَ به الأعداء.

قال الكونت هنري دي كاستري أحد وزراء فرنسا، وأحد حكَّام الجزائر السابقين في كتابه "الإسلام"، قال بعد أن ذكرَ عقيدةَ التَّوحيد عند المسلمين، وإيمانَهم بإله واحد فَرْد صَمَد: وهو اعتقادٌ قويٌّ يؤمن به المسلمون على الدوام، ويَمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقًّا هم المؤمنون كما يسمُّون أنفسَهم، فظهور هذا

الاعتقاد بواسطته - يعني: النبيَّ ﷺ - دفعة واحدة هو أعظمُ مظهر في حياته، وهو ذاتُه أكبرُ دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نُبوَّته.

ولو قالَ قائلٌ: إنَّ القرآنَ ليس كلام الله، بل كلام محمَّد، فلا بُدَّ لنا على الحالين من الاعتراف بأنَّ تلك الآيات البيِّنات لا تصدرُ عن مُبتدعٍ أبدًا، خلافًا لرأي من ذهبَ إلى تكذيب نُبُوَّته، ولعلَّ رأيهم جاء من ضيق اللغة التي تُلجئنا إلى أن نرميَ بالكذب نبيًّا هو في الحقيقة شخصٌ مُلِئ أمانةً وصدقًا.

إذًا ليس محمَّد من المبتدعين، ولا من المنتحلين كتابهم، وليس هو نبيٌّ سَلَّاب؛ كما يقول مسيو مايوس.

ثم يتحدَّث عن أنَّ النبيَّ ﷺ جاءَ مصدِّقًا للكتب قبلَه، ثم يقول: وحينئذٍ لا عَجَبَ إذا تشابَهت تلك الكتب في بعض المواضيع، خصوصًا إذا لاحظنا أنَّ القرآن جاءَ ليُتمَّها؛ كما أنَّ النبيَّ ﷺ خاتَم النبيِّين، ولكنَّ الأمر الذي تُهمُّ معرفته هو أنَّ القرآنَ آخرُ كتاب سماويٍّ ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرُّسل، فلا كتابَ بعد القرآن، ولا نبيَّ بعد محمَّد ﷺ ولن تجدَ لكلماتِ الله تبديلًا.

وقال إسحاق طيَّار رئيس الكنيسة الإنكليزيَّة: الإسلامُ ينشرُ لواء المدنيَّة؛ التي تعلِّم الإنسان ما لم يعلمه، والتي تقول بالاحتشام في المَلبَس، وتأمر بالنظافة والاستقامة وعِزَّة النفس، فمنافعُ الدِّين الإسلاميِّ لا ريبَ فيها، وفوائدُها من أعظمِ أركان المدنيَّة ومبانيها.

وقال واشنطون إيرفنج: القرآنُ فيه قوانينُ زكيَّة سَنِيَّة.

وقال جيبون: القرآنُ مُسَلَّم به من حدود الأُقيانوس الأتلانتيكي إلى نهر الفانج بأنَّه الدُّستور الأساس - ليس لأصول الدِّين فقط - بل للأحكام الجنائيَّة والمدنيَّة، وللشَّرائع التي عليها مَدار نظام حياة النَّوع الإنسانيِّ وترتيب شؤونه.

وقال أيضًا: إنَّ الشَّريعةَ المحمَّديَّة تشملُ الناس جميعًا في أحكامها، من أعظم مَلِك إلى أقلِّ صُعلوك، فهي شريعةٌ حِيكَت بأحكم وأعلم مِنوال شرعيٍّ لا يوجد مثله قطُّ في العالمين.

وقال المؤرِّخُ الهولندي رينهارت دُوزي في كتابه "نظرات في تاريخ الإسلام": شعبٌ ظهرَ فجأةً بين تلك الصحاري التي لا يكادُ يعرفها أحد، شعبٌ جديد بدأ يُمثِّل

دوره على مسرح الحياة، بعد أن ظلَّ نهبًا مقسَّمًا تُناوئ كلُّ قبيلةٍ منه القبيلةَ الأخرى، فيحتدم النِّزاع، وتقع الحرب الطاحنة، ها قد رأيناه يتَّحد، ويجمعُ شمله الشَّتيت للمرَّة الأولى.

ذلكم هو الشَّعب الناهض الذي تَملَّكَ نفسَه حبُّ الحُريَّة، وساعدَته على النجاح صفاتُه النبيلة؛ فقد كان متقشِّفًا في طعامه مُخشَوشنًا في لباسه، نبيلًا في أخلاقه، كما كان طَروبًا سريعَ البديهة حاضرَ النُّكتَة، كان شريفَ النفس أريحيًّا، فإذا استثَرته، فهو قاسٍ غَضوب شَرِس، لا يَني عن أخذ ثأره، ولا يَرُدُّه عن انتقامه شيء.

ذلكم هو الشَّعب الذي قلبَ في لحظة واحدة إمبراطوريَّة الفُرس، بعد أن ظلَّ السُّوس ينخر في عظامها قرونًا عِدَّة، وانتزعَ من خلفاء قُسطَنطِين أجملَ ضواحيهم، ثم سحقَ مملكة جرمانيَّةً حديثةَ العهد تحت قدمَيه، وشرعَ يهدِّد بعد ذلك بقيَّة أوربَّا، بينما كان في ذلك الوقت نفسه يُوالي فتوحه وانتصارَه في الجانب الآخر من المعمورة، حتى وصلَت جيوشُه الظافرة إلى الهملايا.

لم يكن ذلك الشَّعب فاتحًا فحسب، كغيره من

الشعوب الأخرى، بل كان داعيًا إلى دين جديد، ومبشِّرًا به أيضًا؛ كان داعيًا إلى دين جديد، فقامَ يناوئ الوثنيَّة الفارسيَّة والمسيحيَّة التي أفسدَتها الخُرافات والبِدَع، حاملًا إلى الناس توحيدًا خالصًا لم يلبَث أن دانَ به الملايين من الناس، إنَّ ديانةَ العرب الأولى كانت واهيةً لا ترتكز على أساسٍ مَتين، ومتى أقررنا ذلك، سهُل أن نفرضَ أنَّه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا دينًا آخر، فيدينوا بالمسيحيَّة أو اليهوديَّة مثلًا، هذا كلامٌ صحيح ولكن إلى حدٍّ ما.

إنَّ المسيحيَّة انتشرت لهذا السبب نفسه في جهتين: في الحبشة جنوبًا، وفي سوريا شمالًا؛ حيث لَقِيَت شيئًا من القَبول، وقد انتصرت كذلك في مدينة نجران في وقتٍ مُبكر، ودانت شبه جزيرة سيناء بالمسيحيَّة، كما تنصَّر عرب سوريا.

على أنَّ هذا النجاح لم يكن في أيِّ مكان تقريبًا إلَّا مظهرًا من المظاهر لا حقيقة من الحقائق؛ أمَّا في أواسط بلاد العرب وفي قلب جزيرتهم حيث نبتَت جرثومة العربيِّ القُحِّ وأَرُومَتُه، فلم تنجح الدِّعاية للدِّين المسيحي، ولم تكن لترى إلَّا أثرًا ضعيفًا، إن لم نقُل: معدومًا.

كانت المسيحيَّة في ذلك الزمن - على وجهٍ عامٍّ بما

تحويه من معجزات وبما فيها من عقيدة التثليث، وما يتَّصلُ بذلك من ربٍّ مصلوب - قليلةَ الجاذبيَّة، بعيدةً عن التأثير في نفس العربيِّ الساحر الذكي، وآيةُ ذلك ما نراه واضحًا فيما حدثَ للأساقفة الذين سَعَوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحِيرَة حوالي سنة ٥١٣ من الميلاد، فإنَّ المنذرَ ليُصغي إلى ما يقوله الأساقفة بانتباه؛ إذ دخلَ عليه أحد قُوَّاده، فأسَرَّ إليه بضع كلمات، ولم يكد ينتهي منها، حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق، فتقدَّمَ إليه أحدُ القساوسة يسأله متأدِّبًا متلطِّفًا عمَّا أشجاه.

فأجابه الملك: يا له من خبرٍ سيِّئ! لقد أعلمني قائدي أنَّ رئيسَ الملائكة قد ماتَ، فواحسرتا عليه! فأجابه القِسِّيس: هذا مُحالٌ أيُّها الملك! فقد غَشَّك من أخبرك بذلك؛ إنَّ الملائكةَ خالدون، ويستحيل عليهم الفَناء.

فأجابه الملك: أحقٌّ ما تقول؟! وتُريد أن تقنعَني بأنَّ الله ذاته يموت!

العربي رجلٌ عمليٌّ مادِّي، لا يُعنى بغيرِ الحقائق حتى في شِعره، فهو لا يسبحُ في الخيال والوهم، ولا يَميل إلى الأخذ بتلك الألغاز والمُعَمَّيات الدِّينيَّة، التي يعتمدُ

الإنسان في استيعابها على التخيُّل أكثر من اعتماده على التعقُّل.

وقال دوزي أيضًا: بينما أهلُ أوربَّا نائمون في ظلام الجَهالَة لا يرَون الضَّوءَ إلَّا من سَمِّ الخِياط، إذ سطعَ نورٌ قويٌّ من جانب الأمَّة الإسلاميَّة من علومٍ وأدبٍ وفلسفةٍ، وصناعاتٍ وأعمالِ يدٍ وغير ذلك؛ حيثُ كانت مدن بغداد والبصرة وسَمَرْقَنْد ودمشق والقَيروان ومصر وفارس وغَرْناطَة وقُرْطُبَة مراكز عظيمة لدائرة المعارف، ومنها انتشرت في الأُمم، واغتنمَ منها أهلُ أوربَّا في القرون الوُسطى مكتشفاتٍ وصناعاتٍ وفنونًا عظيمة.

وقال دوزي أيضًا في كتابه "ملوك الطوائف": إنَّنا نرى أنَّ الإسلامَ قد انتشرَ بسرعة مدهشةٍ بين تلك الشعوب التي غزاها، وهذه ظاهرةٌ لم يَرَ لها العالم مثيلًا من قبل، وهي تبدو لأوَّل وَهْلَة لُغزًا مستسرًّا، لا سبيلَ إلى حلِّه وتعليله، ولا سيَّما إذا عرفنا أنَّ هذا الدِّين لم يُكرِه أحدًا على الدُّخول فيه، وقد كان محمَّد يأمر بالتسامُح والإغضاء، وقد وضعَ للمسلمين قاعدةَ الجِزيَة، وفرضَها على كلِّ من لم يَدِن به من أهل الكتب المُنزَّلة من اليهود

والنصارى، فمنحَهم حريَّتهم الدِّينيَّة على أن يدفعوا ما فرضَه عليهم من الجِزية، وزادَ في تسامُحِه، فمنحَ هذه المَزيَّة لمن يقطُن إقليم البحرين من المشركين.

أضف إلى هذا أنَّ الحكمَ الإسلاميَّ كان يتوخَّى التيسير والخير العامَّ والبرَّ بالشعوب المحكومة؛ فقد كان سوادُ المسيحيِّين في الشرق ينتمي إلى مذاهبَ لَقِيَت من اضطهاد حكومة القُسطَنطِينيَّة وإعناتها ما أرهقَ أصحابَها إرهاقًا، فلمَّا جاءَ الإسلام - ومن طبيعته التسامح والإخاء - ترك لهم الحرِّيَّة التَّامَّة في البقاء على دينهم ما داموا يُؤثرونه على غيره من الأديان، وظَلَّلهم بحمايته، وسوَّى بينهم في الحقوق على اختلاف مَذاهبهم وشتَّى نِحَلهم، ولا تنسَ أنَّهم كانوا مضطرِّين إلى دفع ضرائبَ فادحة للإمبراطور الرُّوماني، فلمَّا جاء الإسلام أعفاهم منها، ولم يفرض عليهم إلَّا جِزيَة معتدلة لا تُرهق أحدًا.

ومتى عرفت هذه الأسباب، زالت دهشتُكَ وعجبُكَ من إيثارهم حُكم المسلمين على حُكم الرُّومان، واندفاعهم إلى مساعدة العرب في فتوحاتهم بكلِّ قلوبهم وقواهم، بدلًا من مناوأتِهم والتألُّب عليهم.

وقد ألمعنا آنفًا إلى ما يعود من الفائدة الماديَّة إذا أسلموا؛ لأنَّ إعفاءهم من الجزية على اعتدالها كان ممَّا يُرغِّبهم في الإسلام، وأضف إلى هذا ما يشعرون به من الكرامة الشَّخصيَّة إذا أسلموا، وأصبحَ لهم من الحقوق ما للمسلمين، على أنَّ إسلامَ المسيحيِّ كان الخطوة الأولى إلى الكرامة والشُّعور بالعزَّة، والزَّمنُ وحدَه كفيلٌ بتحقيق ما يليها من الخُطوات، ولن يلبث ابن المسيحيِّ أن يصبحَ مسلمًا أصيلًا يتمتَّع بكلِّ ما يتمتَّع به العربيُّ من عزَّةٍ وكبرياء.

ولو صحَّ ما قالَه القساوسة من أنَّ محمَّدًا نبيٌّ منافقٌ كَذَّاب، فكيفَ نعلِّلُ انتصاره؟! وما بالُ فتوحات أتباعه تَتْرَى، وتتلو إحداها الأخرى؟! وما بالُ انتصاراتهم على الشعوب لا تقفُ عند حدٍّ؟! وكيف لا يدلُّ ذلك على معجزة هذا الرَّسول؟!

لقد كانوا يعتقدون أوَّل أمرهم أنَّ خذلان المسلمين سيتمُّ بمعجزة قريبة، فقد طالما سمعوا عن مُعجزات الكنيسة التي كانت تحدث لأقلِّ مناسبة، وانتظروا هذه المعجزة التي تخلِّص البلاد المسيحيَّة من غَزَوات المسلمين، ولكنَّ انتظارهم تلك المعجزة قد طال، وذهبَ

صبرهم أدراج الرِّياح، وعبثًا حاولوا وقوع هذه المعجزة، وأعجبُ من ذلك أنَّ معجزةً - إن لم نقُل: معجزات - قد حدثت حقًّا في ذلك العصر.

وكانت معجزةً أعظم ممَّا كان يتوهَّمه القِدِّيسون أنفسهم، وأيُّ معجزةٍ أروعُ وأعجبُ من أن نرى شعبًا كان إلى زمن قليل في غَيابَةٍ من الخمول، ثم ظهرَ إلى الدُّنيا فجأة، وظلَّ يتقدَّمُ بسرعة لا مثيلَ لها وهو يغزو الأرجاء الفسيحة، وينتصرُ على قطر بعد قطر، فتدين له البلاد بالطَّاعة والولاء، وتُقبل على دينه من كلِّ حَدَبٍ وصَوب راضيةً غير مكرهة، ولو أنَّنا عزَونا إقبال المسيحيِّين على الإسلام إلى الفائدة الشخصيَّة أو الرغبة في التخلُّص من الذلِّ والضَّعَة، فنحن جديرون أن نقِرَّ أنَّ الثابت المُحقَّق أنَّ كثيرًا من المسيحيِّين دانوا بالإسلام عن عقيدة وإيمان.

وقالت الكاتبةُ الإيطاليَّةُ الدكتورة لورافيتشا فالييري في كتابها "محاسن الإسلام": في بلدٍ قَفْرٍ بوادٍ غير ذي زرع، منعزلٍ عن الإنسانيَّة المتمدِّنة - تفجَّرَ يَنبوعُ ماء سلسل عذب منعِش بين قوم من الهَمَج، جبابرةٍ غِلاظ القلوب، لا يخضعون لسلطان، ولا يتقيَّدون بقَيد، ذلك اليَنبوع هو

دينُ الإسلام الذي تدفَّقَ بغزارة واتَّخذَ سبيله في الأرض سَرَبًا، فكان نُهَيرًا، استحالَ بعده إلى نهر عظيم، سرعان ما تفرَّعت منه آلاف الجداول والأنهار التي تغلغلت في البلاد طُولًا وعَرضًا، ولم يَلبثِ الناسُ أن تذوَّقوا هذا الشَّراب العجيب، وشُفُوا من أمراضهم الاجتماعيَّة.

واتَّحدَ المختلفون منهم والمتخاصمون، وانطفأت نيرانُ الحقد والكراهية المشبوبة في صدورهم، وزالت بينهم أسبابُ النُّفور والخلاف، استحالَ هذا الماءُ المقدَّس سيلًا جارفًا، اكتسحَ بقوَّته السَّاحرة بلادًا عظيمة، فثلَّ عروشها، وطوى مجدها طَيَّ السِّجِلِّ للكتُب.

لم يشهد التاريخ حادثًا مماثلًا لهذا الحادث الخطير؛ لأنَّ السُّرعة العظيمة التي أتمَّ بها الإسلامُ فتوحاته، كان لها أبلغُ الأثر في حياته؛ إذ إنَّه بعد أن كان عقيدةَ نَفَرٍ قليلٍ من المتحمِّسين، أصبحَ دينًا لعدَّة ملايين من الناس.

وليت شعري كيف تأتَّى لهؤلاء المجاهدين غير المدرَّبين أن ينتصروا على شعوبٍ يفوقونهم مدنيَّةً وثروة، ويزيدون عليهم دُرْبةً ومِراسًا للحروب؟! وكيف استطاعوا أن يبسُطوا سلطانَهم على بلادٍ متَّسِعَة الأرجاء، وأن

يحتفظوا بفتوحاتهم هذه، ويوطِّدوا هذا الصَّرح العظيم، الذي ثبتَ أمام حروب شديدة استمرَّت قرونًا عديدة، فلم تقوَ على هدمه ونقضِ بنيانه الشَّامخ المتين.

وكيف أمكنَ هذا الدِّين أن يوطِّدَ في نفوس أولئك المهتدين الحديثي الإيمان أمتنَ الأسس؟! وكيف تسنَّى له أن يحتفظَ بحيويَّته العظيمة، التي لم تعرف مثلها ديانةٌ أخرى قبل، حتى بعد ثلاثةَ عشَرَ قرنًا خلت بعد حياة مؤسِّسِه؟! وكيف استطاعَ هذا الدِّين أن يغرسَ تلك الحماسة الدِّينيَّة في نفوس أتباعه الجُدد المختلفين عن أتباعه الأُوَل في الجنس والثقافة؛ فحَذَوا حَذْوَهم في الإخلاص له والتضحية في سبيله؟! لَعَمْري، إنَّ هذا كلَّه لممَّا يبعث في الإنسان الشيءَ الكثير من الدَّهشة والذُّهول.

ثم قالت: أفليس من أكبر معجزات هذا الدِّين أن يؤلِّفَ بين قلوب أقوام كهؤلاءِ العرب؛ عاشوا أجيالًا عديدة في مخاصماتٍ شديدة، وحروبٍ أهليَّة مُستمرَّة، فعرفوا بفضله الاتِّحاد والإخاء والسَّلام؟

أمَّا الخلفاءُ الذين خَلَفُوا محمَّدًا في حكم الدَّولة الإسلاميَّة، والذين كانوا تراجمةَ ضميره - فقد ساروا على

سنَّته التي سَنَّها لهم، وحملوا رايةَ الإسلام إلى قلب القارَّة الأسيويَّة من جهة، وإلى أمواج المحيط الأطلسيِّ من الجهة الأخرى.

لم تكن قد مضت سوى ستَّ عشْرةَ سنة عندما سقطت دولة الفُرس في أيدي العرب بعد موقعة القادسيَّة، مع أنَّ هذه الإمبراطوريَّة ظلَّت مدى أجيال في عِراكٍ مُستمرٍّ مع الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة دونَ أن تتغلَّبَ إحداهما على الأخرى، أمَّا ملكُ الفُرس كسرى، فقد هربَ من العرب، وجعلَ يلجأ إلى إقليم بعد إقليم، حتى بلغَ حدودَ بلاده، وماتَ في سنة ٣١ هجريَّة؛ وبذلك صارت إمبراطوريَّته بأجمعها بلادًا عربيَّة، وبعد أن زالت مَدنيَّتا الدَّولتين الفارسيَّة والرُّومانيَّة، وتهدَّمت ديانتاهما - سرى في عروق الشُّعوب تيَّار جديد، وانتشرت بينهم ديانة جديدة بسيطة، تتحدَّث إلى العقل والقلب معًا.

كما ظهرَ نظامٌ جديد للحكم يفضُل كثيرًا تلك النُّظمَ التي كانت مُتَّبعة هناك في ذلك الوقت؛ نظرًا لمبادئه الخُلقيَّة القويمة، كذلك انتقلَ مال المجوس من خزائن الأشراف إلى أيدي الفقراء وعامَّة الشَّعب، وأخذت تتناولُه

الأيدي مرَّة ثانية، وتستفيد من ثمراته، وقد ظهرَ في الحكم رجالٌ أذكياء مستنيرون، أقاموا حكومة رشيدة تستند إلى آراء ديموقراطيَّة صحيحة، وقد تدرَّجوا في الحكم، وتبوَّؤوا أسمى المراكز.

كما أنَّ المقهورين كانوا يَجدون من حكَّامهم الجُدد كلَّ ضمان لطُمَأنينتهم، ويتمتَّعون بحقوقهم المشروعة كافَّة، كما أنَّ أرواحهم وأملاكهم كانت مكفولة.

أخذَ الناس الذين دُهِشوا لهذا الانقلاب الاجتماعيِّ الدينيِّ السياسيِّ يتساءلون عن سببه الأوَّل، ولكنَّ الكثيرين منهم كانوا لا يُبصرون أو تعمَّدوا إغماضَ عيونهم، فظلُّوا يتخبَّطون طويلًا في مَجاهلِ الغلط والشَّطَط، ولم يدركوا أنَّ القوَّة الإلهيَّة هي التي أعطَت الإشارة الأولى لهذه الحركة المباركة الواسعة النِّطاق، ولم يشاؤوا أن يصدِّقوا أنَّ الحكمةَ الإلهيَّة هي التي اقتضت أن يكونَ محمَّد خاتَمَ الأنبياء والمرسلين، وسجَّلت له إلى الآن رسالة عامَّة إلى الناس أجمعين، بغير تمييز بين جنس وجنس، أو بين بلد وبلد...

إلى أن قالت: وحسبُنا ما قدَّمناه من الأدلَّة والبراهين؛

لأنَّ رجالَ الغرب قد بدؤوا يقتنعون بأنَّ إخلاصَ محمَّد في دعوته كان أمرًا لا ريبَ فيه، ولقد كان محمَّد كرسولٍ يدعو إلى الله رجلًا رحيمًا لَيِّنَ الجانب حتى لأعدائه الشخصيِّين، وبذلك اجتمعت فيه فضيلتان كلتاهما أكبر الفضائل التي يتصوَّرها العقل البشري: الرَّحمة، والعدالة، ولا نرى بنا من حاجةٍ إلى إيراد الأمثلة على ذلك، فمن السَّهل الوقوفُ على كثيرٍ منها في الكتب الموضوعة عن تاريخ حياته.

وحسبُك أنَّ الحروبَ التي هي أقصى ضرورات الحياة الإنسانيَّة قد صارت بفضله أقلَّ وحشيَّة وقسوة؛ إذ إنَّه كان يطلب من جنودِه ألَّا يقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا، ولا يهدموا بيوتًا لم تُتَّخَذ كمعاقلَ حربيَّة، ولا يدمِّروا ما بها من أسباب الحياة، ولا يَمسُّوا الأشجارَ المثمرة والنخيل.

والآن وقد انتهينا من الردِّ على تلك التُّهم التي وجِّهت إلى الإسلام في الغالب نضعُ هذا السؤال: كيف لم ينقطع الإسلام عن الانتشار والذُّيوع في إفريقيا وآسيا، رغم حُرِّيَّة الاعتقاد الكبيرة التي يتمتَّع بها غيرُ المسلمين في البلاد الإسلاميَّة، ورغمًا من الانصراف عن الاهتمام بالشؤون

الدِّينيَّة في هذه الأيَّام الأخيرة؟!

وهو الآن لا يسبقه سيف الفاتحين، بل على النقيض من ذلك، فإنَّ البلادَ التي كانت ترفرف فوقَها رايته، أضحَت محكومة برجال ذوي عقائدَ أخرى، ولم يستطيعوا مع ذلك أن يصرفوا رعاياهم عنه، أو يقتلوه من قلوبهم، فأيَّة قوَّةٍ عجيبة تنطوي عليها هذه الدِّيانة؟! وما قوَّةُ الإقناع التي تستندُ إليها؟! وفي أيَّة عروق النفس البشريَّة تَجِدُ غذاءَها وقوام حياتها؟!

إلى أن تقول: إنَّ الناسَ لتتلهَّف على دين يتَّفق وحاجاتِهم ومَصالحهم الدُّنيويَّة، ولا يكون قاصرًا على إرضاء مشاعرهم وإحساساتهم.

ويريدون أن يكونَ هذا الدِّين وسيلةً لأمنهم وطمأنينتهم في الدُّنيا والآخرة، وليس هنا من دين تتوفَّر فيه هذه المزايا كلُّها بشكل رائع سوى دين الإسلام، إنَّه ليس مُجرَّد دين فحسب، بل إنَّ فيه حياةً للناس؛ لأنَّه يعلِّمهم كيف يُحسنون التفكير والكلام، ويَحضُّهم على فعل الخير وصالح الأعمال؛ ولذلك سُرعان ما شقَّ طريقه إلى القلوب والأفهام.

وقال المسيو ليون روش؛ وهو الذي أقامَ في بلاد المسلمين ثلاثين سنة تعلَّم في أثنائها اللغة العربيَّة وفنونَها، وقرأ العلوم الإسلاميَّة، وعاشر المسلمين في الجزائر وتونس والأستانة ومصر والحجاز، وقد ألَّفَ كتابًا عنوانه "ثلاثون عامًا في الإسلام"، قال فيه:

اعتنقتُ دين الإسلام زمنًا طويلًا لأدخلَ عند الأمير عبد القادر دَسِيسةً من قِبَل فرنسا، وقد نَجحتُ في الحِيلة؛ فوَثِقَ بي الأمير وثوقًا تامًّا، واتَّخذني سكرتيرًا، فوجدتُّ هذا الدِّين الذي يعيبه الكثيرُ أفضلَ دين عرفته؛ فهو دين إنسانيٌّ طَبَعيٌّ اقتصاديٌّ أدبي، ولم أذكر شيئًا من قوانيننا الوضعيَّة إلَّا وجدتُّه مشروعًا فيه، بل إنَّني عدتُّ إلى الشَّريعة التي يُسمِّيها جول سيمون الشَّريعة الطبيعيَّة، فوجدتُّها كأنَّها أُخذت عن الشَّريعة الإسلاميَّة أخذًا.

ثم بحثتُ عن تأثير هذا الدِّين في نفوس المسلمين، فوَجدتُّه قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالًا وكرمًا، بل وجدتُّ هذه النُّفوس على مثل ما يحلُم به الفلاسفة من نفوس الخير والرَّحمة والمعروف، في عالم لا يعرف الشَّرَّ واللَّغو والكذب؛ فالمسلمُ بسيطٌ لا يظنُّ بأحد سوءًا، ثم هو

لا يستحلُّ محرَّمًا في طلب الرزق، ولذلك كان أقلُّ مالًا من الإسرائيليِّين، ومن بعض المسيحيِّين.

ولقد وجدتُّ فيه حلَّ المسألتين الاجتماعيَّتين اللتين تشغلان العالم طُرًّا: الأوَّل في قول القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذه أجملُ مبادئ الاشتراكيَّة، الثاني: فرض الزكاة على كلِّ ذي مال، وتخويل الفقراء حقَّ أخذِها غصبًا إن امتنعَ الأغنياءُ عن دفعها طَوعًا، وهذا دواء الفوضويَّة.

ثم قالَ عن الإسلام إجمالًا: إنَّه دين المَحامد والفضائل، ولو أنَّه وجدَ رجالًا يعلِّمونه الناس حقَّ التعليم، ويفسِّرونه تمامَ التفسير - لكان المسلمون اليوم أرقى العالمين، وأسبقَهم في كلِّ الميادين، ولكن وُجدَ بينهم - ويا للأسف! - شيوخ يحرِّفون كَلِمَه، ويَمسخون جماله، ويُدخلون فيه ما ليس منه.

وقال المستر درابر أستاذ كليَّة نيويورك بأمريكا: إنَّ أقوى وأكبر الممالك الدِّينيَّة التي لم يَرَ العالم مثلها قد وُلدَت فجأة، وامتدَّت من المحيط الأتلانتيكي إلى أسوار الصِّين، ومع ذلك فلم تكُ قد بلغت نهاية ما قُدِّرَ لها من

الامتداد والنُّفوذ؛ فلقد أتى عليها بعد ذلك حينٌ من الدَّهر طردت فيه خلفاء القياصرة، وملكت بلاد اليونان، ونازعت النصرانيَّة السُّلطة على أوربَّا، ونشرت نفوذ عقائدها خلال الصَّحاري الموحِشَة والغابات الموبوءة من أوَّل شواطئ البحر الأبيض المتوسِّط إلى خطِّ الاستواء.

وقال سنكس في مقال له بعنوان "محمَّد ﷺ": ظهرَ محمَّد بعد المسيح بخمسمئة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقيةَ عقول البشر؛ بإشرابها الأصولَ الأوليَّة للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعِها إلى الاعتقاد بإلهٍ واحد، وبحياةٍ بعد هذه الحياة.

ثم قال: إنَّ الدِّيانة الإسلاميَّة أحدثت رُقيًّا كبيرًا جدًّا في الفكرة الدِّينيَّة في العالم، وخلَّصت العقل الإنسانيَّ من قيوده الثقيلة التي كانت تأسِره حول الهياكل بين يدي الكهَّان ذوي الصِّبغ الدِّينيَّة المختلفة.

نعم، ارتقى العقل بواسطة الإسلام للاعتقاد بحياة أُخرويَّة؛ وهذه العقيدةُ هي الوازعُ الأقوى في مُحاولات الإنسان المادِّية، وإلى الإخبات لإلهٍ واحدٍ يستطيع أن يعبدَه بنفسه، دون مداخلة أحد بينه وبينه، وأن يرتقيَ في

مصاعد كرامته إلى مجال أنواره، دونَ وُسطاء ولا شفاعة الشَّافعين من بني جنسه، ولقد توصَّلَ محمَّد بمحوه كلَّ صورة في المعابد، وإبطاله كلَّ تَمثيل لذات الخالق المطلق - إلى تخليص الفكر الإنسانيِّ من عقيدة التجسيد الغليظة، التي كانت من لوازم الفكر البشريِّ في القرون الخالية.

وأجبرَ النوع الإنسانيَّ بتأثير هذه التعاليم لأن يرجعَ إلى نفسه، ويبحثَ عن الله تعالى خالقِه في أعماق روحه وصميم سِرِّه؛ ليستطيعَ أن يرتفعَ بهذه العقيدة النقيَّة إليه تعالى، بواسطة العبادة القلبيَّة المملوءة احترامًا وشكرًا ومحبَّة، ولقد قصَّرَ الناس في الالتفات إلى ذلك الرُّقيِّ الأدبيِّ الباهر الذي تمَّ بواسطة الدِّيانة الإسلاميَّة، وحصلَ هذا الرُّقي بعيدًا عنَّا لدى شعوب يسهل علينا وصفهم ظلمًا بالمتوحِّشين، بمجرَّد كونهم لا يخضعون لأفكارنا ولا يقولون بعقائدنا.

وقال إدوار مونتيه مدير جامعة جنيف في محاضرة له: إنَّ الإسلامَ دينٌ سريع الانتشار، ينتشر من تلقاء نفسه دونَ أيِّ تشجيع تقدِّمه له مراكز منظَّمة؛ وذلك لأنَّ كلَّ مسلم مُبشِّرٌ بطبيعته، المسلم شديد الإيمان، وشدَّةُ إيمانه تستولي

على قلبه وعقله، وهذه مِيزَةٌ في الإسلام ليست لدِين سواه.

ولهذا السبب ترى المسلمَ الملتهب إيمانًا يبشِّر بدينه أينما ذهبَ وأنَّى حَلَّ، وينقُل عدوى الإيمان الشديد لكلِّ من يتَّصل به من الوثنيِّين، ولعَمْري، إنَّ للإيمان الإسلاميِّ الشديد أكبرَ فضل في نشره هذا الانتشار السريع، وفضلًا عن الإيمان، فالإسلامُ تَمشَّى مع الأحوال الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، وله قدرة عجيبة على التكيُّفِ بحسَب المحيط، وعلى تكييف المحيط حسَب ما يقتضيه هذا الدِّين القوي.

ولا شكَّ أنَّ الإسلامَ يُعَدُّ من أكبر وسائل تمرين الناس وترقيةِ أحوالهم الاجتماعيَّة والدِّينيَّة والخُلقيَّة والاقتصاديَّة.

الإسلامُ حضارةٌ قائمةٌ بنفسها رغمَ انحطاط المسلمين في فترة من الزَّمن، إلَّا أنَّهم الآن ينتبهون مرَّة ثانية، وينشُرون المدنيَّةَ والرُّقيَّ في كلِّ أنحاء العالم.

تأثيرُ الإسلام في السكَّان مفيدٌ أكثر من تأثير المسيحيَّة، فالمسيحيَّةُ ضعفها ظاهرٌ في إفريقيا، بينما قوَّة الإسلام وعِظَم تأثيره في الحالات الاجتماعيَّة والدِّينيَّة

والخلقيَّة والاقتصاديَّة ظاهرٌ جَليٌّ.

وآخرُ ملاحظاتي هي: أنَّ للإسلام قوَّةَ اندماج وملاءمة للأوساط الإفريقيَّة والأوساط الراقية والمدنيَّة العالية، وليست هذه المَزيَّة لأيِّ دين أو نظام اجتماعيٍّ غيره.

وقال المستشرق جب: ما زال الإسلامُ يحفظ التوازنَ بين الاتِّجاهين المتغاليين المتقابلين في دنيا الغرب؛ فهو يساوي ويوائم بين الاشتراكيَّة القوميَّة الأوربيَّة وبين شيوعيَّة روسيا؛ فلم يهوِ بالجانب الاقتصاديِّ من الحياة إلى ذلك النِّطاق الضيِّق الذي أصبحَ من مميِّزات أوربَّا في الوقت الحالي، والذي هو اليوم من مميِّزات روسيا أيضًا.

وقال جب أيضًا: ليس هنالك أيَّة هيئة سوى الإسلام يُمكن أن تنجحَ مثله نجاحًا باهرًا في تأليف هذه الأجناس البشريَّة المتنافرة في جبهةٍ واحدةٍ أساسُها المساواة، وإذا وضِعَت منازعات دول الشرق والغرب العُظمى موضعَ الدَّرس، فلا بُدَّ من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النِّزاع.

وقال موريس المستشرق الفرنسي: إنَّ القرآنَ هو الكتابُ الذي ادَّخرَتْهُ العناية الأزليَّة لبني البشر؛ فهو ندوةٌ للعلماء، ومُعجمٌ لمن يطلب اللغة، ودائرةُ معارف لمن

يطلب الشرائع والقوانين، وجميع الكتب السَّماويَّة التي أُنزلت قبلَه لا تساوي أكثر من آيةٍ من آياته.

وقال الماجور آرثر جلين ليونارد: يجب أن تكونَ حالة أوربَّا إزاء الإسلام بعيدةً من كلِّ هذه الاعتبارات الثَّقيلة، فتكون حالة شكرٍ أبديٍّ، بدلًا من نُكران الجميل الممقوت والازدراء المهين، فأوربَّا لم تعترف قطُّ إلى يومنا هذا بإخلاص طَوِيَّة وقلب سليم بالدِّين العظيم المقيم إلى الأبد، الذي تدان به إلى التربية والمدنيَّة الإسلاميَّة، اعترفت به بفتورٍ وعدم اكتراث عندما كان أهلُها غارقين في بحار الهمجيَّة والجهل في العصور المظلمة فقط.

المدنيَّةُ الإسلاميَّة عند العرب وصلَت إلى أعلى مُستوى في العظمة العمرانيَّة والعلميَّة، حتى أحيت جَذوةَ المجتمع الأوروبِّي المشتعلة، وحفظته من الانحطاط، ألم نعترف - نحن الذين نعتبر أنفسنا في أعلى قمَّة التَّهذيب المدنيَّة - بأنَّه لولا التَّهذيب الإسلاميُّ ومدنيَّته وعلمه وعظمة العرب العمرانيَّة وحسن نظام مدارسهم، لكانت أوربَّا إلى اليوم غارقةً في ظلمات الجهل؟

هل نسينا أنَّ التسامحَ الإسلاميَّ كان يختلف اختلافًا

شديدًا عن الحالة التي لا تُطاق التي كانت عليها أوربَّا إذ ذاك.

هل نسينا أنَّ الخلافةَ نشِطَت في أيَّام أعظم انحطاط لروما والفُرس، وأنَّ السَّواد الأعظم من أوربَّا كان نائمًا تحت سَحابات الوحشيَّة السَّوداء القاتمة؟

أتهمل أوربَّا في زوايا النِّسيان بالحقد وعدم الشكر تلك الأعمال التي أتَوها، والشُّهرة التي تركوها وراءهم في الكتب، ألَم نفقِد مرأى نشاط العالم الإسلامي الذِّهني العجيب في عصوره الأولى، ولا سيَّما في زمان العبَّاسيِّين؟ ألم ننسَ الخسارة الفادحة التي جنيناها على أدبيَّات العرب، بل الجناية التي جنيناها على العالم أجمع بتدميرنا بجهلٍ وفجورٍ آلاف الكتب، التي حضَّنا على تدميرها الترفُّضُ والتعصُّبُ المسيحي.

ألا يمكن أن يقالَ حقًّا: إنَّ أوربَّا المسيحيَّة بذلت كلَّ ما بوسعها من قرونٍ مضَت لأن تُخفيَ شكرها للعرب.

إلَّا أنَّ مثل هاتيك التشكُّرات المؤكَّدة تأكيدًا تامًّا أعظم وأرفع من أن تختفيَ طويلًا، دَع أوربَّا، وبالأحرى دَعِ القارَّة المسيحيَّة تقرُّ وتعترف بخطئها، دَعها تعلن للعالم

أجمع عن غباوتها الغزيرة بعدم الشُّكر الواجب عليها، إنَّها ستُضطرُّ بعدُ للاعتراف بالدَّين الأبديِّ المَدِينَة به للإسلام.

وقال إدموند بوك الخطيب السياسيُّ الإنكليزي: القانون المحمَّديُّ قانونٌ ضابطٌ للجميع من المَلِك إلى أقلِّ رعاياه، وهو قانون نُسِجَ بأحكم نظام قضائي، وأعظم قضاءٍ علمي، وأعظم تشريع منوَّر، ما وُجِدَ قطُّ مثلُه في هذا العالم من قبل.

وقال آرثر دروز في كتابه "شهود تاريخ يسوع": إنَّ الإسلامَ هو الدِّين الوحيد الذي نعرف عنه باليقين أنَّ مؤسِّسه كان شخصًا له وجودٌ حقيقيٌّ تاريخي.

ويقول ويل ديورانت مؤلِّف كتاب "قصَّة الحضارة" في مقدِّمة كتابه: إنَّ السِّيادة الأوربيَّة تسرعُ نحو الانهيار، وإنَّ من أعظم أخطاء الغرب تجاهلَه فضلَ الشرق في فضائله وحيويَّته وانتعاشه، وإصراره على كتابته التقليديَّة للتَّاريخ بأن يبدأ قصَّة الحضارة من اليونان، ويكتفيَ بالحديث عن آسيا كلِّها في سطر واحد.

ويقول في موضعٍ آخر: وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثرٍ في الناس، قُلنا: إنَّ محمَّدًا كان

من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذَ على نفسه أن يرفعَ المستوى الرُّوحيَّ والأخلاقيَّ لشعب ألقَت به في دياجير الهمجيَّة حرارةُ الجوِّ وجَدْب الصَّحراء، وقد نجحَ في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يُدانِه فيه أيُّ مصلح آخر في التاريخ كلِّه، وقلَّ أن نجدَ إنسانًا غيره حقَّقَ كلَّ ما كان يحلُم به، وقد وصلَ إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدِّين.

ويقول: والقرآنُ يبعث في النفوس السَّاذجة أسهل العقائد، وأقلَّها غموضًا، وأبعدها عن التقليد بالمراسيم والطُّقوس، وأكثرها تحرُّرًا من الوثنيَّة والكهنوتيَّة، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقيِّ والثقافي، وهو الذي أقامَ فيهم قواعد النِّظام الاجتماعيِّ والوَحدة الاجتماعيَّة، وحَضَّهم على اتِّباع القواعد الصحِّية، وحرَّرَ عقولهم من كثير من الخُرافات والأوهام، ومن الظُّلم والقسوة.

وحسَّن أحوال الأرِقَّاء، وبعثَ في نفوس الأذلَّاء الكرامة والعِزَّة، وأوجدَ بين المسلمين درجة من الاعتدال والبُعد عن الشَّهوات لم يوجَد لها نظيرٌ في أيَّة بُقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض.

ولقد علَّم الإسلام الناس أن يواجهوا صِعاب الحياة، ويتحمَّلوا قيودها بلا شكوى ولا ملل، وبعثَهم إلى التوسُّع توسُّعًا كان أعجبَ ما شهده التاريخ كلُّه، وقد عرَّفَ الدِّين وحدَّده تحديدًا لا يجد المسيحيُّ ولا اليهوديُّ الصحيح العقيدة ما يَمنعه من قَبوله.

ويختم حديثه عن الحضارة الإسلاميَّة بقوله: لقد ظلَّ الإسلام خمسة قرون - على الأقلِّ - من عام ٧٠٠م إلى ١٢٠٠م يتزعَّم العالم كُلَّه في القوَّة والنِّظام، وبسطة الملك، وجميل الطِّباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنسانيِّ الرحيم، والتسامح الدِّيني، والآداب والبحث العلمي، والعلوم والطِّب، والفلسفة... إلخ.

وقال الفيلسوف الإنكليزيُّ توماس كارليل في كتابه "الأبطال": لقد أصبحَ من أكبر العار على أيِّ فردٍ مُتمدِّن من أبناء هذا العصر أن يُصغيَ إلى ما يظنُّ من أنَّ دين الإسلام كَذِب، وأنَّ محمَّدًا خَدَّاع، وآنَ لنا أن نحاربَ ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السَّخيفة المخجلة، فإنَّ الرِّسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السِّراج المنير، مدَّة اثني

عشر قرنًا لنحو مئتي مليون من الناس أمثالنا، خلقَهم الله الذي خلقَنا.

أفكان أحدكم يظنُّ أنَّ هذه الرِّسالة التي عاشَ بها وماتَ عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصاء أكذوبةٌ وخدعة؟ أمَّا أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأيَ أبدًا، ولو أنَّ الكذبَ والغشَّ يَروجان عند خلق الله هذا الرَّواج، ويُصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقَبول، فما الناس إلَّا بُلهٌ ومجانين، وما الحياةُ إلَّا سخفٌ وعَبَث، وأُضلولة كان الأولى بها ألَّا تُخلق، فوا أسفاه! وما أسوأ مثل هذا الزعم! وما أضعف أهلَه وأحقَّهم بالرثاء والرحمة!

وبعد؛ فعلى مَن أرادَ أن يبلغَ منزلةً ما في علوم الكائنات ألَّا يصدِّق شيئًا البتَّة من أقوال أولئك السُّفهاء؛ فإنَّها نتائجُ جيلِ كفر، وعصرِ جحودٍ وإلحاد، وهي دليلٌ على خبث القلوب، وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان، ولعلَّ العالم لم يَرَ قطُّ رأيًا أكفرَ من هذا وألأم، وهل رأيتم قطُّ معشر الإخوان أنَّ رجلًا كاذبًا يستطيع أن يوجدَ دينًا وينشرَه؟ عجبًا والله، إنَّ الرجلَ الكاذب لا يَقدِرُ أن يبنيَ بيتًا من الطُّوب، فهو إذا لم يكن

عليمًا بخصائص الجِير والجَصِّ والتُّراب وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه بيتٌ؛ وإنَّما هو تلٌّ من الأنقاض، وكثيبٌ من أخلاط المواد، نعم؛ وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا، يسكنه مئتا مليون من الأنفُس، ولكنَّه جديرٌ أن تنهارَ أركانه، فينهدم فكأنَّه لم يكن.

كذبٌ والله ما يُذيعه أولئك الكافرون، وإن زخرفوه حتى خيَّلوه حقًّا وهو زورٌ وباطل، وإن زيَّنوه حتى أوهموه صدقًا، ومِحنةٌ والله ومُصابٌ أن ينخدعَ الناس شعوبًا وأممًا بهذه الأضاليل، وتسودَ الكَذَبَةُ وتقودَ بهاتيك الأباطيل، وإنَّما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزوَّرة يحتال لها الكَذَّاب حتى يخرجَها من كفِّه الأثيمة، ويَحيقَ مُصابها بالغير لا به.

وأيُّ مصابٍ وأبيكم؟ مصابو الثورة الفرنسيَّة وأشباهها من الفتن والمِحَنِ يصيحون بملء أفواههم: هذه الأوراق كاذبة.

ولسنا نعُدُّ محمَّدًا هذا قطُّ كاذبًا يتذرَّعُ بالحِيَل والوسائل إلى بُغية، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرِّسالة التي أدَّاها إلَّا

حقٌّ صريح، وما كلمته إلَّا صوتٌ صادرٌ من العالم المجهول، وإنَّما هو قطعةٌ من الحياة قد تفطَّرَ عنها قلبُ الطَّبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاءَ العالم أجمع؛ ذلك أمر الله، وذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء، وهذه حقيقة تدفعُ كلَّ باطل، وتدحَض حجَّة القوم الكافرين.

ويتحدَّث عن الكعبة؛ فيقول:

وما أعجبَ هذه الكعبة! وأعجبَ شأنَها! فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها، عليها الكُسوة السَّوداء التي يرسلها السُّلطان كلَّ عام، يبلغ ارتفاعها سبعًا وعشرين ذراعًا، حولها دائرة مزدوجة من العُمُد، وبها صفوف من المصابيح وبها نُقوشٌ وزخارفُ عجيبة، وستوقد تلك المصابيح الليلة لتُشرقَ تحت النُّجوم المشرقة، فنِعمَ أثر الماضي هي! ونِعمَ ميراث الغابر! هذه كعبة المسلمين، ومن أقاصي المشرق إلى أُخريات المغرب، من دلهي إلى مَرَّاكُش تتوجَّه أبصار العديد المُجمهَر من عباد الله المصلِّين شطرَها، وتَهفو قلوبهم نحوها خمس مرَّات، هذا اليوم وكلَّ يوم، نعم؛ لهي واللهِ من أجلِّ مراكز المعمورة وأشرف أقطابها.

ثم يذكر حال العرب في الجاهليَّة، وما هم عليه من وثنيَّة وتفرُّق وخمول؛ قال:

وعلى هذه الطريقة عاشَ العرب دهورًا، خاملي الذِّكر، غامضي الشأن، أناسًا ذوي مناقب جليلة وصفات كبيرة، ينتظرون من حيث لا يشعرون اليومَ الذي يُشاد فيه بذكرهم، ويطيِّرون في الآفاق هيبتهم، ويرتفع إلى عَنان السماء صوتُهم، وما ذلك ببعيد، وكأنَّما كانت وثنيَّاتهم قد وصلت إلى طَور الاضمحلال وآذنت بالسُّقوط، وكان بين هؤلاءِ العرب التي تلك حالهم أن وُلد محمَّد - عليه السَّلام - عام ٥٨٠ ميلادية.

ويَذكر المزاعم الباطلة التي يروِّجها بعضُ المتعصِّبين من أنَّ محمدًا تعلَّم من الراهب بَحِيرا، ويفنِّد ذلك الزَّعم ويسفِّهُه، إلى أن يقول:

ويزعم المتعصِّبون من النصارى والملحدون أنَّ محمَّدًا لم يكن يريد بقيامه إلَّا الشُّهرة الشَّخصيَّة ومفاخر الجاه والسُّلطان، كلا وايمُ الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القِفار والفَلَوات، المتوقِّدِ المُقلتين، العظيمِ النفس، المملوءِ رحمةً وخيرًا وحنانًا وبِرًّا وحكمةً وحِجًى

وإرْبَةً ونُهًى - أفكار غير الطَّمع الدُّنيوي، ونوايا خلاف طلب السُّلطان والجاه.

وكيف؟ وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا يُمكنهم إلَّا أن يكونوا مُخلصين جادِّين، فبينما نرى آخرين يرضَون بالاصطلاحات الكاذبة، ويسيرون طبقَ الاعتبارت الباطلة - إذ نرى محمَّدًا لم يرضَ أن يلتفَّعَ بمألوف الأكاذيب، ويتوشَّحَ بمنبع الأباطيل؛ لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرُّ الوجود يسطع لعينيه - كما قلت - بأهواله ومخاوفه ورونقه ومباهره، لم يكُ هنالك من الأباطيل ما يحجُب ذلك عنه، فكأنَّ لسان حال ذلك السرِّ الهائل يُناجيه: «ها أنا ذا»، وما كلمة مثل هذا الرجل إلَّا صوتٌ خارج من صميم قلب الطَّبيعة، فإذا تكلَّم فكلُّ الآذان برغمها صاغيه، وكلُّ القلوب واعيه، وكلُّ كلام ما عدا ذلك هَباء، وكلُّ قول جَفاء.

أيزعُم الكاذبون أنَّه الطَّمعُ وحبُّ الدُّنيا هو الذي أقامَ محمَّدًا وأثاره؟ حمقٌ وايمُ الله وسخافةٌ وهَوَسٌ هذا الزعم، أيُّ فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب، وفي

تاج قيصر وصولجان كسرى، وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة؟ وأين تصير الممالك والتِّيجان والدُّول جميعها بعد حينٍ من الدَّهر؟ أفي مشيخة مكة وقضيب مُفضَّض الطَّرَف، أم في مُلكِ كسرى وتاج ذهبيِّ الذؤابة - منجاةٌ للمرء ومظفَرة؟ كلَّا، إذًا فلنضرب صفحًا عن مذهب الجائرين القائلين: إنَّ محمَّدًا كاذب، ولنعُدَّ موافقتهم عارًا وسُبَّةً وسخافةً وحمقًا، ولنربأ بنفوسنا عنه ولنترفَّع.

فمن فضائل الإسلام تضحية النفس في سبيل الله، وهذا أشرف ما نزل من السماء على نبيِّ الأرض، نعم؛ هو نور الله قد سطعَ في رُوح ذلك الرجل؛ فأنارَ ظلماتها، هو ضياء باهر كشفَ تلك الظلمات، التي كانت تُؤذن بالخسران والهلاك.

ولقد قيل كثير في شأن نشر محمَّد دينه بالسَّيف، فإذا جعلَ الناس ذلك دليلًا على كذبه فشَدَّ ما أخطؤوا وجاروا! فهم يقولون: ما كان الدِّين لينتشر لولا السَّيف، ولكن ما هو الذي أوجدَ السَّيف؟ هو قوَّة ذلك الدِّين، وأنَّه حقٌّ، والرأي الجديد أوَّلَ ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد؛ فالذي يعتقده هو فرد ضدَّ العالم أجمع، فإذا تناولَ هذا

الفرد سيفًا وقامَ في وجه الدُّنيا فقلَّما والله يضيع.

وأرى على العموم أنَّ الحقَّ ينشر نفسه بأيَّة طريقة، حسبما تقتضيه الحال؛ أولم ترَوا أنَّ النصرانيَّة كانت لا تأنف أن تستخدمَ السَّيف أحيانًا، وحسبُكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون، وأنا لا أحفِل أكان انتشار الحقِّ بالسَّيف أم بالسُّلطان أم بأيَّة آلة أخرى، فلندَع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة، أو بالصِّحافة، أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهِد بأيديها وأرجلها وأظفارها؛ فإنَّها لن تهزمَ إلَّا ما كان يستحقُّ أن يُهزم، وليس في طاقتها قطُّ أن تُفنيَ ما هو خير منها، بل ما هو أحطُّ وأدنى.

إنَّ دينًا آمنَ به أولئك العرب الوثنيُّون وأمسكوه بقلوبهم الناريَّة، لجديرٌ أن يكونَ حقًّا، وجديرٌ أن يُصدَّقَ به، وإن ما أُودِعَ هذا الدِّين من القواعد لهو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمنَ به، وهذا الشيء هو رُوح جميع الأديان، رُوح تلبَس أثوابًا مختلفة وأثوابًا متعدِّدة، وهي في الحقيقة شيءٌ واحد، وباتِّباع هذه الرُّوح يصبح الإنسان إمامًا كبيرًا لهذا المعبَد الأكبر (الكون) جاريًا على قواعد الخالق، تابعًا لقوانينه، لا محاولًا عبثًا أن يقاومَها

ويدافعَها، ولم أعرف قطُّ تعريفًا للواجب أحسن من هذا.

وجاء محمَّد وشِيَعُ النصارى تقيم أسواق الجدال، وتتخبَّطَ بالحُجج الجائرة، وماذا أفادَ ذلك؟ وماذا أثمر؟

لقد جاء الإسلامُ على تلك المِلَل الكاذبة، والنِّحَل الباطلة فابتلعَها وحُقَّ له أن يبتلعَها؛ لأنَّه حقيقة خارجة من قلب الطَّبيعة، وما كادَ يظهر الإسلام حتى احترقَت فيه وثنيَّات العرب وجدليَّات النَّصرانيَّة، وكلُّ ما لم يكن بحقٍّ، فإنَّها حطب ميِّتٌ أكلته نارُ الإسلام فذهبَ والنار لم تذهب.

أمَّا القرآنُ فإنَّ فَرْطَ إعجاب المسلمين به وقولَهم بإعجازه هو أكبرُ دليل على اختلاف الأذواق في الأُمم المختلفة، هذا وإنَّ التَّرجمة تذهب بأكثر جمال الصَّنعة، وحسن الصياغة، ولذلك لا عجبَ إذا قلت: إنَّ الأوربيَّ يجد في قراءة القرآن أكبر عَناء؛ فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد، لا يزال يقطع في صفحاتها قِفارًا من القول المملِّ المتعِب، ويحمل على ذهنه هِضابًا وجبالًا من الكَلِم؛ لكي يعثرَ في خلال ذلك على كلمة مفيدة.

أمَّا العربُ فيرونه على عكس ذلك؛ لما بين آياته وبين

أذواقهم من الملاءمة، ولأنَّه لا ترجمةَ ذهبت بحُسنه ورونقه؛ فلذلك رآه العربُ من المعجزات، وأعطَوه من التبجيل ما لم يُعطهِ أتقى النصارى لإنجيلهم، وما بَرِحَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ قاعدةَ التشريع والعمل، والقانونَ المتَّبعَ في شؤون الحياة ومسائلها، والوحيَ المنزَّلَ من السَّماء هدًى للناس، وسراجًا منيرًا يضيء لهم سُبل العيش، ويهديهم صراطًا مستقيمًا، ومصدرَ أحكام القُضاة، والدرسَ الواجبَ على كلِّ مسلم حفظُه والاستنارة به في غياهب الحياة.

وفي بلاد المسلمين مساجدُ يُتلى فيها القرآن جميعُه، وكذلك ما بَرِحَ هذا الكتاب يرِنُّ صوته في آذان الأُلوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرنًا في كلِّ آنٍ ولحظة.

وإنِّي لأحبُّ محمَّدًا لبراءة طبعه من الرِّياء والتصنُّع.

وفي الإسلام خَلَّة أراها من أشرف الخِلال وأجلِّها؛ وهي: التَّسوية بين الناس، وهذا يدلُّ على أصدق النظر وأصوب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء، والإسلام لا يكتفي بجعل الصَّدقة سنَّة محبوبة، بل يجعلها فرضًا حتمًا على

كلِّ مسلم، وقاعدةً من قواعد الإسلام، ثم يقدِّرها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءًا من أربعين من الثروة تُعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين، جميلٌ والله كلُّ هذا وما هو إلَّا صوت الإنسانيَّة، صوت الرحمة والإخاء والمساواة.

ولقد أخرجَ الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النُّور، وأحيا به من العرب أمَّة خاملة وأرضاها مُدَّة، وهل كانت إلَّا فئة من جوَّالة العرب خاملةً فقيرة، تجوب الفَلاة منذ بدء العالم، لا يُسمع لها صوت، ولا تُحسُّ منها حركة، فأرسلَ الله لهم نبيًّا بكلمة من لدُنه ورسالة من قِبَله، فإذا الخمولُ قد استحال شهرة، والغموضُ نباهة، والضِّعَةُ رِفعة، والشَّرارة حريقًا؛ وسِعَ نوره الأنحاء، وعمَّ ضوؤه الأرجاء، وعقدَ شعاعه الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب.

وما هو إلَّا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبحَ لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حِقَبًا عديدة ودهورًا مديدة، بنور الفضل والنُّبل والمروءة والبأس والنَّجدة، ورونق الحقِّ والهدى، على نصف المعمورة، وكذلك الإيمان العظيم، وهو مَبعَث

الحياة ومَنبَع القوَّة، ومازال للأمَّة رُقِيٌّ في دَرَج الفضل، وتعريجٌ إلى ذرى المجد، ما دام مذهبها اليقين، ومنهاجها الإيمان.

وقال: إنَّ أركان القرآن الأساسيَّة جاءت من ناحية صحَّة حقيقته؛ فهو كتابٌ لا ريبَ فيه، ولا يستطيع أحدٌ أن يدُسَّ فيه شيئًا ليس منه؛ لأنَّ فصاحةَ القرآن فوقَ كلِّ فصاحة.

وقال بوسورث سميث في القرآن: هو نسيجُ وحدِه في مصدره وفي سلامته، حتى ما يستطيع أحدٌ أن يلقيَ شيئًا من الشكِّ في صحَّة روايته، حتى أنَّ السِّير وليم ميور (١٨١٩- ١٩٠٥م) يعترف بقوله: ليس ثَمَّة - على الأرجح - كتابًا آخر في العالم قد بَقيَ اثني عشر قرنًا نقيًّا من كلِّ شائبة كالقرآن، ثم هو يزيد مع فون هامر فيقول: إنَّنا نعتقد في القرآن أنَّه اليوم بكلِّ تأكيد كما نطقَ به محمَّد، مثلما يعتقد المسلمون أنَّه كلام الله، فالمسلمُ إذ يملك كتابًا صدرَ عن وحي إلهي، ثم بَقِيَ سليمًا مصونًا في خلال العصور؛ ليهديَه إلى خَيره الاجتماعي والخُلقي، وإذ يقتدي بنبيٍّ عظيمٍ نبيلٍ كمحمَّد، الذي نجد في اختباره المتنوِّع في الحياة أحسنَ قواعد السُّلوك في جميع أحوال الحياة

الإنسانيَّة، هذا المسلم حقيقٌ أنَّه لم يردَّ حقيقة أوحاها الله تعالى إلى شعب من الشعوب، ولا أنكرَ قيمة خبرٍ وقعَ عليه في حياة رجل خير، فالمسلمُ إذًا لا يعتقد فقط بالوحي الإلهيِّ كلِّه فحسب، ولا هو يتقبَّل فقط ما جاءَ به هُداة جميع الشعوب، ولكنَّه يتَّبع أيضًا الحقائق الخالدة التي تضمَّنها الوحي، ويقتدي بالرِّجال الطيِّبين في كلِّ خيرٍ عملوه في حياتهم.

وقال الإمبراطور نابليون بونابرت: المسلمون شعبٌ حديث السِّيرة في المدنيَّة يوحِّد الله، ومع ذلك فإنَّه حملَ بالقرآن جوهر الحقيقة التي جاءَ بها موسى والمسيح إلى أقاصي الجزيرة العربيَّة وإفريقيا والهند، وكان متمِّمًا لها في استئصال الوثنيَّة.

وقال أيضًا: الإسلامُ دينُ الفقراء والأمراء معًا، وإنِّي أجدُ فيه بساطةً ليست في طقوس الكنيسة وغفراناتها وكهاناتها.

وقال المستر وليم شد في كتابه "الإسلام والكنيسة الشرقيَّة": ليس في أخبار التاريخ الماضية ما يُماثل سرعة انتشار الإسلام وتقدُّمه وتبسُّطه.

ويقول المستشرق ماسينيون: إنَّ لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدَّدُ في تحقيق فكرة المساواة؛ وذلك بفرضِ الزكاة التي يدفعها كلُّ فردٍ لبيت المال، وهو يناهضُ الدُّيون البابويَّة، والضرائب غير المباشرة التي تُفرض على الحاجات الأوَّليَّة الضروريَّة.

ويقف في نفس الوقت إلى جانب الملكيَّة الفرديَّة ورأس المال التِّجاري، وبذا يحُلُّ الإسلام مرَّة أخرى مكانًا وسطًا بين نظريَّات الرأسماليَّة البرجوازيَّة ونظريَّات البلشفيَّة الشُّيوعية...

إلى أن يقول: وللإسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماضٍ كلُّه النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة، على بساط المساواة في الحقوق والواجبات.

ويقول ماركس في نظام الزكاة: وكانت هذه الضريبة فرضًا دينيًّا يتحتَّمُ على الجميع أداؤه، وفضلًا عن هذه الصِّفة الدينيَّة فالزكاةُ نظامٌ اجتماعيٌّ عام، ومصدرٌ تدَّخر به الدَّولة المحمديَّة ما تمدُّ به الفقراء وتُعينهم، وذلك على

طريقة نظاميَّة قويمة؛ لا استبداديَّة تحكُّميَّة، ولا عَرَضيَّة طارئة.

وهذا النِّظامُ البديع كان الإسلام أوَّل من وضعَ أساسه في تاريخ البشريَّة عامَّة، فضريبةُ الزكاة التي كانت تُجبر طبقات المُلَّاك والتُّجَّار والأغنياء على دفعها؛ لتصرفَها الدَّولة على المُعْوِزين والعاجزين من أفرادها - هدَمت السِّياج الذي كان يفصل بين جماعات الدَّولة الواحدة، ووحَّدت الأمَّة في دائرة اجتماعيَّة عادلة، وبذلك برهنَ هذا النِّظام الإسلاميُّ على أنَّه لا يقوم على أساسِ الإثرة البغيضة.

ويقول المؤرخ الإنكليزي المشهور هـ. و. ولز: كلُّ دين لا يسير مع المدنيَّة في كلِّ طَورٍ من أطوارها فاضرب به عُرْضَ الحائط ولا تُبالِ به؛ لأنَّ الدِّين الذي لا يسير مع المدنيَّة جنبًا إلى جنب لهو شرٌّ مستطير على أصحابه يجرُّهم إلى الهلاك، وإنَّ الدِّيانة الحقَّة التي وجدتُّها تسير مع المدنيَّة أنَّى سارت هي الدِّيانة الإسلاميَّة، وإذا أرادَ الإنسان أن يعرفَ شيئًا من هذا فليقرأ القرآن، وما فيه من نظريَّات علميَّة، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، فهو كتابٌ

دينيٌّ علمي، اجتماعيٌّ تهذيبي، خلُقيٌّ تاريخي، وكثيرٌ من أنظمته وقوانينه تُستعمل حتى في وقتنا الحالي، وستبقى مستعمَلةً حتى قيام الساعة.

وإذا طلبَ منِّي أحدُ القرَّاء أن أحدِّدَ له الإسلام، فإنِّي أحدِّده بالعبارة التالية: هل في استطاعة إنسان أن يأتيَني بدورٍ من الأدوار كان فيه الدِّين الإسلاميُّ مغايرًا للمدنيَّة والتقدُّم؟

كان النبيُّ محمَّد زراعيًّا وطبيبًا وقانونيًّا وقائدًا، واقرأ ما جاءَ في أحاديثه تتحقَّق صدق ما أقول، ويكفي أنَّ قوله المأثور: «نحن قومٌ لا نأكلُ حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبَع»، هو الأساس الذي بُنيَ عليه علمُ الصَّحة، ولم يستطع الأطباء - على كَثرتهم ومهارتهم - أن يأتوا حتى اليوم بنصيحةٍ أثمن من هذه.

والخلاصةُ أنَّ محمدًا كان مجموعةً من الحسِّ والنُّبوغ والبحث، وهذا هو التحديد الصحيح الذي يجب على كلِّ مسلم أن يعرفَه.

إنَّ محمدًا هو الذي استطاعَ في مُدَّة وجيزة لا تزيد عن ربع قرن، أن يكتسحَ دولتين من أعظم دول العالم،

وأن يقلبَ التاريخ رأسًا على عَقِب، وأن يكبحَ جِماح أمَّة اتَّخذت الصحراء المُحرِقة سكنًا لها، واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ بالثأر واتِّباع آثار آبائها، ولم تستطع الدَّولة الرُّومانيَّة أن تغلب الأمَّة العربيَّة على أمرها، فمَن الذي يشكُّ أنَّ القوَّة الخارقة للعادة هي التي استطاعَ محمَّد أن يقهر خصومه بها هي من عند الله.

وقال في كتابه "معالم تاريخ الإنسانيَّة": كان الإسلامُ منذ البداية قويَّ المقاومة إلى حدٍّ بعيدٍ لعمليَّات الصَّقل والتفاصيل اللاهوتيَّة التي أربكت المسيحيَّة، وكان مليئًا برُوح الرِّفق والسَّماحة والأخوَّة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفَهم، كان غريزةً مُسجَّرة تحوي عواطف الفروسيَّة في الصحراء.

ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام يهتمُّون إلَّا بشيءٍ واحد هو أنَّ ذلك الربَّ (الله) الذي كان يبشِّر به الرسول كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم ربَّ صلاح وبر، وأنَّ القَبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه في عالم تقلقُل وخيانة وانقسامات لا تسامحَ فيها على أُخوَّة عظيمة متزايدة من رجال جديرين

بالثقة في الأرض.

ويقول المسيو دي شامبيون مدير مجلة "ريفو بارلنتيرا" الفرنسيَّة: لولا انتصارُ جيش شارل مارتل الهمجيِّ على تقدُّم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أُصيبت بفظائعها، ولا كابدت المذابح الأهليَّة الناشئة عن التعصُّب الدِّينيِّ والمذهبي، ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجَت إسبانيا من وصمة محاكم التفتيش، ولولا ذلك لما تأخَّرَ سيرُ المدنيَّة ثمانية قرون، نحن مدينون للشعوب العربيَّة بكلِّ محامد حضارتنا في العلم والفنِّ والصِّناعة، مع أنَّنا نزعم السَّيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبُها أنَّها كانت مثال الكمال البشريِّ مُدَّة ثمانية قرون، بينما كنَّا يومئذ مثال الهمجيَّة، وإنَّه لكذبٌ وافتراء ما ندَّعيه من أنَّ الزمان قد اختلف، وأنَّهم صاروا يمثِّلون اليوم ما كنَّا نمثِّله نحن فيما مضى.

ويقول المسيو كلود فارير في المقدِّمة التي كتبَها للترجمة الفرنسيَّة من رواية "العبَّاسة أخت الرشيد" تأليف: جرجي زيدان:

أُصيبت الإنسانيَّة والعالم الغربيُّ عام ٧٣٢م بكارثةٍ عُظمى لم تُصَب بمثلها في القرون الوسطى، وبَقِيَ أثرها ظاهرًا في العالم مُدَّة سبعة قرون أو ثمانية إن لم يكن أكثر من ذلك؛ لأنَّ روح التجدُّد كانت يومئذٍ قد بدت للعِيان حتى وقعت تلك الكارثة، فكان من نتائجها تأخُّر سير الحضارة ورجوع العالم إلى الوراء؛ هذه الكارثة هي الانتصار المؤلم الذي أحرزَه وحوش (الهاركا) من جيوش الإفرنج التي كان يقودها شارل مارتل سليل الكالنجيِّين، محاربًا بها كتائب العرب والبربر التي لم يُحسن عبد الرحمن جمعها وحشدها بالمقدار الكافي؛ فكان ذلك سببَ خذلانها وتقهقرها، في ذلك اليوم المظلم تقهقرت الحضارةُ إلى الوراء ثمانية قرون، وحسبُ الذين يبتغون أن يشهدوا مثالًا من مدنيَّة العرب يومئذٍ أن يتنقَّلوا بين حدائق الأندلس الغنَّاء، ثم يأتوا الآن فيتردَّدوا بين خرائب ذلك العصر الماثلة للأنظار في إشبِيليَّة وقُرْطُبة وطُلَيْطِلَةَ وغَرْناطَة.

وقال الدكتور غوستاف لوبون: ما عرفَ التاريخ حاكمًا أعدل ولا أرحم من العرب.

وقال الدكتور غوستاف لوبون أيضًا في كتابه "حضارة

العرب": ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ ممَّا لا ريبَ فيه أنَّ محمَّدًا أصابَ في بلاد العرب نتائج لم تُصِب مثلها جميع الدِّيانات التي ظهرت قبل الإسلام - ومنها اليهوديَّة والنصرانيَّة - ولذلك كان فضل محمَّد على العرب عظيمًا.

وإذا ما قِيسَت قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمَّد من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب ينصفون محمَّدًا مع أنَّ التعصُّب الدِّينيَّ أعمى بصائر مؤرِّخيهم عن الاعتراف بفضله.

قال العلامةُ بار تامي سنت هيلر: كان محمَّد أكثرَ عرب زمانه ذكاء، وأشدَّهم تديُّنًا، وأعظمهم رأفة، ونال محمَّد سلطانه الكبير بفضل تفوُّقه عليهم، ونعدُّ دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده من جزيل النِّعم على جميع الشعوب التي اعتنقته.

ونشتقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التَّوحيد المَحض، وفي هذه السُّهولة سرُّ قوَّة الإسلام، والإسلامُ وإدراكه سهلٌ خالٍ ممَّا نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذَّوق السليم من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحًا، وأقلَّ غموضًا من أصول الإسلام القائلة بإلهٍ

واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنَّة مَن يقوم بها، ويدخل النار مَن يُعرض عنها، وإنَّك إذا ما اجتمعت بأيِّ مسلم من أيَّة طبقة رأيته يعرف ماذا يجب عليه أن يعتقدَه، ويسرُد لك أصول الإسلام في بضع كلماتٍ بسهولة، وهو بذلك عكس النَّصراني الذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة، وما ماثلَهما من الغوامض من غير أن يكونَ من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وساعدَ وضوح الإسلام، وما أمرَ به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم، وبتلك المزايا نفسِّر سبب اعتناق كثير من الشعوب النَّصرانيَّة للإسلام؛ كالمصريِّين الذين كانوا نصارى أيَّام حُكم القياصرة القُسطَنطِينيَّة، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسِّر به السبب في عدم تنصُّر أيَّة أمَّة بعد أن رضيَت بالإسلام دينًا، سواء كانت هذه الأمَّة غالبة أم مغلوبة.

ويجب على مَن يرغب في الحكم بفائدة كتاب دينيٍّ ألَّا ينظر إلى قواعده الفلسفيَّة الضعيفة على العموم بل إلى

مدى تأثيره؛ والإسلامُ إذا ما نُظِرَ إليه من هذه الناحية وُجِدَ من أشدِّ الأديان تأثيرًا في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاح... إلخ، يعلِّمُ هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف - فضلًا عن ذلك - أن يصبَّ في النفوس إيمانًا ثابتًا لا تزعزعه الشُّبهات، ولا ريبَ في أنَّ نفوذ الإسلام السياسيَّ والمدنيَّ كان عظيمًا إلى الغاية؛ فقد كانت بلاد العرب قبل محمَّد مؤلَّفة من إمارات مستقلَّة، وقبائلَ متقاتلةٍ على الدوام، فلمَّا ظهرَ محمَّد ومضى على ظهوره قرن واحد كانت دولة العرب ممتدَّة من الهند إلى إسبانيا، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهَّاج في جميع البُلدان التي خفقت رايةُ النبيِّ فوقها.

والإسلام من أكثر الدِّيانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس، وحملًا على العدل والإحسان، والتَّسامح والبدهيَّة، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفةً تراها مضطرَّةً إلى التحوُّل لتستمرئها الجموع، وهي لا شكَّ دون الإسلام في شكلها المعدَّل هذا.

وجرت حضارةُ العرب التي أوجدَها أتباع محمَّد صلى الله عليه وسلم على سنَّة جميع الحضارات القديمة؛ نشوءٌ فاعتلاءٌ فهبوطٌ فموت، ومع ما أصابَ حضارة العرب من الدُّثور كالحضارات التي ظهرت قبلَها لم يَمَسَّ الزمن دين النبيِّ الذي له من النفوذ ما له في الماضي، ولا يزال ذا سلطانٍ كبيرٍ على النفوس، مع أنَّ الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كلَّ يوم شيئًا من قوَّتها.

يدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثرُ من مئة مليون شخص، واعتنقته جزيرةُ العرب ومصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى وجزءٌ كبير من الهند وروسية والصِّين، ثم جميع إفريقيَّة تقريبًا إلى ما تحت خطِّ الاستواء.

وتجمع بين مختلِف الشعوب التي اتَّخذت القرآنَ دستورًا لها وَحدةُ اللغة والصِّلات التي يُسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكَّة من جميع بلاد العالم الإسلامي.

ويجب على جميع أتباع محمَّد تلاوة القرآن باللغة العربيَّة بقدر الإمكان، واللغةُ العربيَّة هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارًا على ما يحتمل.

وعلى ما بين الشُّعوب الإسلاميَّة من الفروق

والعنصريَّة ترى بينها من التَّضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت عَلَمٍ واحد في أحد الأيَّام.

وقضى أعداءُ الإسلام من المؤرِّخين العَجَب من سرعة انتشار القرآن العظيمة، فعزَوها إلى ما زعموه من تحلُّل محمَّد وبطشه، فيسهل علينا أن نثبتَ أنَّ هذه المزاعم لا تقوم على أساس، فنقول: إنَّ مَن يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصَّرامة، وأنَّ ما أباحَه القرآن من تعدُّد الزوجات لم يكن غريبًا على الشُّعوب المسلمة التي عرفته قبل ظهور محمَّد.

وما قيل من دليل حول تحلُّل محمَّد نَقَضَه منذ زمن طويل العلَّامة الفيلسوف بايل على الخصوص؛ فبعد أن أثبتَ بايل أنَّ ما أمرَ النبيُّ بالتزامه من قيود الصِّيام وتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق هو أشدُّ ممَّا أمرَ به النصارى - قال: إنَّ من الضَّلال أن يُعزى انتشار الإسلام السَّريع في أنحاء الدُّنيا إلى أنَّه يُلقي عن كاهل الإنسان ما شقَّ من التكاليف والأعمال الصالحة، وأنَّه يُبيح له البقاء على سيِّئ الأخلاق، فقد دوَّنَ هوتنجر قائمةً طويلةً بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، فأرى - مع القصد في

مدح الإسلام - أنَّ تلك القائمة تحتوي على أقصى ما يمكن أن يُؤمرَ به إنسان من التحلِّي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام.

وسيرى القارئُ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أنَّ القوَّةَ لم تكن عاملًا في انتشار القرآن؛ فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدثَ أن اعتنقَ بعض الأقوام النصرانيَّةِ الإسلامَ واتَّخذوا العربيَّة لغةً لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين، ممَّا لم يَروا مثله من سادتهم السَّابقين، ولما كان عليه الإسلام من السُّهولة التي لم يعرفوها من قبل.

والتاريخُ أثبتَ أنَّ الأديانَ لا تُفرَض بالقوَّة، فلمَّا قهرَ النصارى عربَ الأندلس فضَّل هؤلاء القتلَ والطَّردَ عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر الإسلامُ بالسَّيف؛ بل انتشرَ بالدَّعوة وحدَها، وبالدَّعوة وحدَها اعتنقَت الإسلامَ الشعوب التي قهرت العرب مؤخَّرًا كالتُّرك والمغول، وبلغَ من انتشار الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل أن زادَ عدد المسلمين فيها على خمسين مليون

نفس، ويزيد عدد مسلمي الهند يومًا فيومًا، مع أنَّ الإنكليز - الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر - يجهِّزون البعثات التَّبشيريَّة ويرسلونها تِباعًا إلى الهند؛ لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن أقلَّ انتشارًا في الصِّين التي لم يفتح العرب أيَّ جزءٍ منها قطُّ، فترى في فصلٍ آخر سرعةَ الدَّعوةِ الإسلاميَّة فيها، ويزيد عددُ مسلميها على عشرين مليونًا في الوقت الحاضر.

وللفتوحِ العربيَّة طابع خاصٌّ لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد العرب؛ فالبرابرةُ الذين استولَوا على العالم الرُّوماني، والتُّرك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولًا عظيمة؛ لم يؤسِّسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقَّة من حضارة الأُمم التي قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشؤوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، وتمكَّنوا من حمل أُمم كثيرةٍ على انتحال دينهم ولغتهم، فضلًا عن حضارتهم الجديدة، واتَّصلت بالعرب أممٌ قديمة - كشعوب مصر والهنود - فاعتنقَت

معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفنَّ عماراتهم.

واستولت بعد ذلك الدَّور أُممٌ كثيرة على الأقطار التي فتحَها العرب؛ فظلَّ نفوذُ العرب فيها ثابتًا، ويلوح لنا رسوخ هذا النفوذ إلى الأبد في جميع البِقاع الآسيويَّة والإفريقيَّة التي دخلوها، والتي تمتدُّ من مُرَّاكِش إلى الهند، والإسبان وحدَهم استطاعوا أن يتخلَّصوا من الحضارة العربيَّة، ولكنَّهم لم يصنعوا ذلك إلَّا ليقعوا في الانحطاط العُضال.

وقال لوثروب ستودارد الأمريكي في كتابه "حاضر العالم الإسلامي": كادَ يكون نبأ نشوء الإسلام النبأَ الأعجب الذي دُوِّن في تاريخ الإنسان، ظهرَ الإسلامُ في أمَّةٍ كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، وبلاد منحطَّة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عقودٌ حتى انتشرَ في نصف الأرض، ممزِّقًا ممالك عالية الذُّرى، مترامية الأطراف، وهادمًا أديانًا قديمة كرَّت عليها الحِقَب والأجيال، ومغيِّرًا ما بنفوس الأُمم والأقوام، وبانيًا عالمًا حديثًا متراصَّ الأركان: هو عالم الإسلام الذي نشأ في بلادٍ صحراويَّة، تجوب فيافيها شتَّى القبائل الرَّحَّالة التي لم تكن من قبلُ رفيعةَ المكانة والمنزلة في التاريخ، فلسرعان

ما شرعَ يتدفَّق وينتشر وتتَّسع رُقعته في جهاتِ الأرض، مجتازًا أفدح الخطوب، وأصعب العَقَبات، دون أن يكونَ له من الأُمم الأخرى عونٌ يُذكر ولا أزرٌ مشدود.

وعلى شدَّة هذه المكاره فقد نُصِرَ الإسلام نصرًا مبينًا عجيبًا؛ إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين، حتى باتت رايةُ الإسلام خفَّاقةً من البرانس حتى هملايا، ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط إفريقيَّة. كان لنصر الإسلام هذا النصر الخارق عواملُ ساعدت عليه؛ أكبرها أخلاقُ العرب، وماهيَّةُ تعاليم صاحب الرِّسالة، وشريعته، والحالةُ العامَّة التي كان عليها المشرقُ المعاصِر في ذلك العهد.

إنَّ العربَ وإن كان ماضيهم ما بَرِحَ منذ عهدٍ متطاول في القِدَم حتى عصر الرِّسالة ماضيًا غيرَ مشرق باهر - قد كانوا أمَّة استُودِعَت فيها قوَّة عجيبة، تلك القوَّة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الإسلام تظهر جليَّة إلى عالم الوجود؛ فقد ظلَّت بلادُ العرب أجيالًا طوالًا من قبل محمَّد مَباءةً يشتدُّ فيها تَذخار القوى الحيويَّة وجيَشان العوامل الرُّوحانيَّة.

كيف لا؟ وكان العربُ قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إيغالًا في الشِّرك والوثنيَّة، وانقضى عليهم - وهم على هذه الحالة - عهدٌ ليس بالقليل، حتى استحالت عناصر أمزجتهم من شدَّة ذلك كلِّه؛ فصاروا توَّاقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم، وتحسين شأنهم، هكذا كانت حالتهم العقليَّة والنفسانيَّة - حالة الاستحالة الكبرى، والانقلاب العظيم، والاستعداد الكبير - لمَّا صاحَ فيهم نفيرُ الإسلام.

إن محمَّدٌ - وهو عربيٌّ من العرب - إلَّا رُوح قومه متجسِّدة، ونفوسهم متجسِّمة، استطاعَ محمَّد وهو يبشِّر بالوحدانيَّة تبشيرًا عاريًا عن زخارف الطقوس والأباطيل، أن يستثيرَ حقَّ الاستثارة من نفوس العرب الغَيرةَ الدِّينيَّة، وهي الغَيرة الكامنة متمكِّنة على الدوام في كلِّ شعبٍ من الشعوب السامية، وذهبَ العربُ لنصرة ابن عبد الله من بعد ما ذهبت من صدورهم الإِحَن المزمنة والعداوات الشديدة، التي كان من شأنها من قبلُ الذَّهاب بحولهم وقوَّتهم، وانضمَّ بعضُهم إلى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرِّسالة في رأسه نورٌ للناس وهدًى للعالمين،

أخذوا يتدفَّقون تدفُّق السَّيل من صحاريهم في شبه الجزيرة؛ ليفتحوا بلاد الإله الأحد الفرد الصَّمد... إلخ.

ويقول و. وندل كليلاند: فالإسلامُ اليوم هو دين زُهاء ٣٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ نسَمة؛ فهو لذلك دينٌ حيويٌّ وحيٌّ، ولئن كان من أغراض الدِّين أن يُحدِثَ استقرارًا اجتماعيًّا ليمكن القول أيضًا إنَّ من أغراض الدِّين الحيِّ أن يتطوَّرَ حسبَ تطوُّر ظروف الحياة، وإنَّ تاريخ الإسلام قد أظهرَ قدرته على إحداث هذا التطوُّر، ولنا أن نعتقدَ أنَّ هذه المقدرة ما تزال موجودة، على أنَّ المسؤوليَّة تتوقَّف على المسلمين أنفسهم، حقًّا إنَّه لا إكراهَ في الدِّين، عدا إكراه الضمير في داخل النفس.

ويتحدَّث فيليب وايرلند بوزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة بواشنطن عن المناقضة بين الإسلام والشيوعيَّة ويقول: إنَّ قَبول المسلمين للشيوعيَّة يستلزم حسَب القواعد الدِّينيَّة التي نصَّ عليها القرآنُ والحديث حواجز أخرى، وأولى هذه القواعد هي وحدانيَّة الله، لا إلهَ إلَّا الله، وهذا الرُّكن من أركان العقيدة كان الجامعَ لشمل المسلمين جميعًا؛ فإنَّ الإيمانَ بالله ووحدانيَّته هو قلبُ الإسلام بقدر ما هو

الاستسلام لإرادة الله.

والركن الثاني هو أنَّ محمَّدًا رسول الله، وأحد أنبيائه وأعظمهم، ولم يكن وساطة الوحي في حياته فحسب، بل في جميع الأوقات وجميع العصور، والاعتقاد بأنَّ محمَّدًا رسول الله هو ركنٌ أساسٌ من أركان الإيمان يلي الإيمان بالله كما يرد في الصلوات.

والركنُ الثالث هو الإيمان بأنَّ القرآنَ كلام الله المُوحَى به إلى النبيِّ محمَّد باللغة العربيَّة، ومن الأركان الأخرى الإيمان باليوم الآخر والثواب والعقاب من الله.

ومقابلة سطحيَّة بين هذه القواعد وبين النظريَّات الماديَّة والآراء الماركسيَّة واللِّينينيَّة والستالينيَّة تكفي لإظهار المناقضة بين الإسلام والشيوعيَّة، والدَّليل على ذلك ليس مجرَّد تصريح لينين المأثور سنة ١٩٠٥م: «إنَّ الدِّين هو أَفيون الشعوب»، بل اتِّجاه الشيوعيَّة الذي كان هائمًا إلحاديًّا وضدَّ الدِّين، ومثال ذلك وردَ في التصريح الرسميِّ الموجَّه إلى الشباب الشيوعيِّين سنة ١٩٤٦م: إنَّ النظريَّات الماديَّة وفلسفة ماركس ولينين وأساس الحزب الشيوعي النظري تُناقِض الدِّين؛ إنَّ نظرَ الحزب يعتمدُ على الحقائق

العلميَّة في حين أنَّ الدِّين يُناقض العلم.

وبما أنَّ الحزبَ يعتمدُ في نشاطه على أسسٍ علميَّةٍ فمن الواجب أن يُخالف الدِّين، ونصحَ الشباب الشيوعيَّ بما يلي: إنَّ الدِّعاية للإلحاد كانت جزءًا حيويًّا من نشاط المؤسَّسات العلميَّة والثقافيَّة في الاتِّحاد السوفيتِّي منذ أوَّل يوم من أيَّام الحكم السوفيتِّي، وسيستمرُّ الحزب في متابعة دعايته ضدَّ الدِّين؛ لأنَّها الوسيلةُ التي يمكن أن تقضيَ على رجعيَّة الدِّين قضاءً تامًّا.

ومن البَدَهي - بِناءً على ذلك - أنَّه لا يوجد في الشيوعيَّة مكانٌ لله، أو محمَّد أو لأيِّ نبيٍّ آخر، أو للقرآن بوصفه كتابًا منزَّلًا أو شريعة، أو لليوم الآخر، أو لقضاء الله وقدره، فالشيوعيَّةُ هي نقيض الإسلام، وهناك مبدأٌ آخر يُناقض الإسلام وهو مِلكيَّة الدَّولة لوسائل الإنتاج وللمِلكيَّة، في حين أنَّ نظام المِلكيَّة الفرديَّة وقداسته قد أقرَّهما القرآن، وجرى عليهما المسلمون، وقد وردَ مثلًا في خطبة الوداع التي خطبها النبيُّ العبارة التالية: «أيُّها الناس؛ اسمعوا قولي واعقِلوه، تعلمون أنَّ كلَّ مسلم أخٌ لكلِّ مسلم، وأنَّ المسلمين إخوةٌ؛ فلا يحلُّ لامرئ إلَّا

ما أعطاه عن طِيب نفس منه».

وورد في نفس الفتوى التي أذاعَها مفتي الدِّيار المصريَّة أنَّ العقليَّة الإسلاميَّة التي تعترفُ بحقِّ الملكيَّة المقدَّس تُناقض تعاليم الدُّعاة الهدَّامين الذين يُنكرون حقَّ الملكيَّة الفرديَّة للأرض، والذين أقاموا نُظمَهم الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة على هذا المبدأ، ويتَّضحُ من هذا أنَّ المسلمين المخلصين العاملين يقاومون الشيوعيَّة مقاومة صادقة.

إلى أن يقول: يبدو من النَّظرة الأولى أنَّه توجد ظروف ملائمة جدًّا للديمقراطيَّة في داخل الإسلام؛ فإنَّ الإسلامَ كان أعظمَ الدِّيانات توفيقًا في إزالة فوارق الجنس واللَّون والقوميَّة؛ ففي المسائل الدِّينيَّة كما قال هـ.ا. جب: يتساوى أحقرُ مسلم مع الخليفة، أو قاضي القُضاة، والسُّلطة النهائيَّة ترجع إلى إجماع الشعب.

وقال الدكتور نظمي لوقا القبطي المصري في كتابه "محمَّد؛ الرِّسالة والرَّسول"؛ وقد صدرَ في العام الماضي، وأحدثَ صدوره ضجَّة بين المسيحيِّين، قال تحت عنوان (بَرِحَ الخَفاء): لم يبقَ شكٌّ في أنَّ رسالة

الإسلام جاءت مناسبةً لطَورِ البشريَّة الطَّبيعي، جاءت رسالةُ الإسلام متلافيةً أوجه الغموض في العقيدة الإلهيَّة، وأوجه العُسر والعنَت، وأوجه إغفال الدُّنيا وفطرة البدن والرُّوح في كيان واحد.

ثم مع هذا لم يُقفل باب الاجتهاد في السُّمُوِّ الرُّوحي، فما كانت دعوةَ تهوين أو إسفاف، بل دعوة اتِّساع في الأفق وشمول في النظر، يأخذ كلُّ إنسان منها على قَدر طاقته، ثم هو متروكٌ في أمر طاقته لضميره وسريرته أن يقولَ صادقًا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالمعوَّل على السريرة والنيَّة والصِّدق.

فهذا الدِّين - كما قال رسوله - يُسرٌ لا عُسر، وهو دينٌ متينٌ فأوغلوا فيه برفق، لا زيفَ في هذا الدِّين إذًا، وهو مُلَبٍّ حاجة البشريَّة كافَّة سوادهم وخاصَّتهم، لا مسخَ فيه ولا إسفاف، ولا عسرَ فيه ولا إجحاف؛ وإنَّما هو صراطٌ مستقيم لا إعناتَ فيه للفكرِ السليم والبداهة السديدة.

بَرِحَ الخفاء، وأثبتَ هذا الدِّين نفسَه دين هداية بالحقِّ، وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المُعَمَّيات والخوارق، الغريبة عن طبيعة معدنه في الإقناع والتَّصديق، وردِّ اعتبار البدَن بوصفه هيكلَ الرُّوح، فهو ليس مصدرَ خزيٍ لصاحبه، ولا هو بالرِّجس، وإنَّما الرِّجس في مقارفة المحرَّمات المحدَّدة شرعًا، وفي الإضرار بالنفس أو الغير، وبغلَبة الشَّهوة على صاحبها، فصاحب الرِّسالة هو القائل: «إنَّ لبدنكَ عليك حقًّا»، والقرآنُ يكرِّر ذلك المعنى في أكثر من موضع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٧]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١].

هو دين يَسعُ الناس كافَّة، ويهديهم كافَّة، ولكن حَذارِ أن يظنَّ ظانٌّ أنَّ دعوة الإسلام استهوت الناس بتملُّقِ غرائزهم، أو رِشوةِ منافعهم وإثرتهم، أو إباحةِ الأهواء والشهوات؛ فإنَّ ذلك يكون ضلالًا كبيرًا، وجنوحًا إلى عكس مضمون تلك الدَّعوة.

إنَّ الرِّسالة الإسلاميَّة جاءت تنظيمًا لحياة الناس؛ بحيث يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتيَّة والأنانيَّة بكلِّ توابعها، من الشَّهوة أو الهوى والقَسوة والظلم والإباحيَّة.

فرضَت على المرء أن يعمل، وجعلَت قيمته وشرفه معلَّقين بعمله ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وفرضَت الزكاة على الأموال، وجعلَت للفقير في عنق الغنيِّ حقًّا مفروضًا هو الصدقة، وفرضَت الصَّفحَ والعفو، ومحَت الثأرَ والشَّحناء، وفرضَت الصَّلاة والصِّيام، وحرَّمَت البذخَ والسَّرَف، وفرضَت التواضع، وحرَّمَت الخُيَلاء، وأحلَّت الزواج، وحرَّمت الزِّنى، وضيَّقَت زواجَ الجاهليَّة؛ فجعلَت أقصاه أربعًا، وحضَّت على زواج الواحدة.

وفرضَت الأخوَّة والمساواة، وألغَت العصبيَّة والاستعلاء بالنَّسب والجاه، وحرَّمت الخمر، وحرَّمت الفسوق والتجبُّر والمَيسِر والعدوانَ على حقوق الناس وأعراضهم.

فلئن قيل: إنَّ الإسلامَ اعترفَ بحقِّ البدَن، فإنَّما يُقال

ذلك بوجه معيَّن؛ إنَّه لم يغفُل عن وجود البدن، وفطرة الله للبشر ذوي أبدان لا ملائكة من نور، فهو دينٌ حصيفٌ شامل، لا يُرهقُ الناس من أمرهم عسرًا، ولكنَّه إذ يمتنع عن الغلوِّ في إنكار الجسد لا يغلو في إطلاق العَنان له، بل إنَّه يلزمه حدوده، ويجعل الزِّمام في يد العقل؛ كي يسلكَ صاحبه مسلكًا طاهرًا؛ يتمتَّع بالطيِّبات ممَّا أحلَّ الله شاكرًا لأنعُمه مبتغيًا رضوانه، فذلك البدن إذًا أشبه ما يكون بمطيَّة أحرى براكبها أن يرتحلَها إلى كلِّ ما هو طيِّب، ويتنكَّبَ بها كلَّ ما هو خبيث من المحارم، فإذا نظرنا إلى الرِّسالة الإسلاميَّة لوجدناها أبعدَ ما تكون عن شبهة تملُّق الشهوات، أو إباحة الأهواء، أو رِشوة المنافع واللُّبانات.

كان العربُ في الجاهليَّة أهلَ إباحة، لا وازعَ ولا رادع، قصفُهم مجون، ولهوهم فجور، وحياتهم عدوان، وكسبُهم سُحْت، وليلُهم خمرٌ ومَيسِر، فكيف يُقال عن دين اقتلعَ جذور هذا كلِّه، ووضعَ الحدود لكلِّ وجهٍ من وجوه النشاط البشري: إنَّه استدرجَ هؤلاءِ بما تملَّقه من غرائزهم، وما أباحَ لهم من مباذلهم؟

إن لم يكن هذا هو التنظيمَ والتضييقَ والسموَّ فما عساه يكون؟ ما فعلَ الإسلام إلَّا أن اعترفَ للمرء بحقِّ الحياة التي برَأَه الله فيها وركَّب فيه فطرة حبِّها وطلبها، فاستطاعَ الإنسان أن يعيشَ غير مضطرب أو متأثِّم من طبيعته السَّويَّة، وقد رُسمت له حدود تتَّفق وواقع فطرته، وتسمح له بالتسامي ما استطاع، ومَن لم يستطع فلا تثريبَ عليه، وفي رحمة الله الذي خلقَه وعرفَ ضعفه متَّسع.

ومَن سمَّى هذا التوسيعَ لبابِ رحمة الله والاعترافَ بفطرة الله التي فطرَ عليها بني آدم: إباحةً وتملُّقًا للشهوات - إنَّه إذًا لمغالطٌ أو مخالط.

أترى إن قيلَ للناس: لا تتنفَّسوا، يكون ذلك معقولًا مقبولًا؟! وتكون إباحة التنفُّس تملُّقًا لأهوائهم أو رغباتهم؟!

بل ذلك هو تقديرُ الاستطاعة، وعدم قطع الناس عن رحمة الله، فلا تكون لهم حجَّة بعدُ في تحدِّي حدود العقيدة، وقد نظرَت إلى حقيقة طبائعهم بغير إعنات، وهذا هو القِسطاس الحقُّ في تنظيم أمور الناس من غير تحيُّف، بحيث يُطيق كلٌّ منهم تسويد العقل والرُّوح على نوازع

نفسه، ومَن شاءَ اتَّخذَ إلى ربِّه سبيلًا.

وما جاء الرُّسل بالأديان بلاءً للناس بل رحمة.

بَرِحَ الخَفاء، والرِّسالة رسالة حقٍّ.

ثم يقول الدكتور نظمي لوقا في ختام كتابه بعنون (لا بُدَّ ممَّا ليس منه بُدٌّ): ماذا بقيَ من مزاعمَ لزاعم؟ إيمان امتحنَه البلاء طويلًا قبل أن يُفاءَ عليه بالنَّصر، وما كان النَّصر متوقَّعًا أو شبهَ متوقَّع لذلك الدَّاعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام.

وعقيدة جاءت في طَورها الطَّبيعي، ملبِّيةً لحاجة الإنسان الطَّبيعيَّة، موفِّقةً بين دينه ودنياه، ومتلافيةً تلك القِسمة المسقِمة بين الرُّوح والبدن في السرِّ والعلَن.

ونزاهةٌ ترتفع فوق المنافع، وسموٌّ يتعفَّفُ عن بهارج الحياة، وسماحةٌ لا يُداخلها زَهوٌ أو استطالةٌ بسلطان مُطاع، لم يُفدَ ولم يُورَث إلهٌ، ولم يجعل لذريَّته وعشيرته مِيزَة من مِيزات الدُّنيا ونعيمها وسلطانها، وحرَّمَ على نفسه ما أحلَّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدُّم على الناس في الجاهليَّة؛ حتى جعلَ العُبدان

والأحابيش سواسيةً وملوك قريش، لم يمكِّن لنفسه ولا لذريَّته، وكانت لذويه بحكم الجاهليَّة صَدارة غير مدفوعة، فسوَّى ذلك كلَّه بالأرض.

أيُّ قالةٍ بعد هذا تنهضُ على قدمَين لتُطاولَ هذا المجد الشاهق، أو تُدافع هذا الصِّدق الصادق؟!

لا خِيَرَةَ في الأمر، ما نطقَ هذا الرسول عن الهوى.

لا خِيَرَةَ في الأمر، ما ضلَّ هذا الرسول وما غوى.

لا خِيَرَةَ في الأمر، وما صدقَ بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين.

فسلامٌ عليه بما هدى من سبيل، وما قوَّم من نهج، وما بيَّن من محجَّة، وسلامٌ على الصادقين.

شعور من اعتنقوا الإسلام

وهنا نحبُّ أن نذكرَ طائفةً من أقوال بعض مَن اعتنقوا الإسلام عن وعي ودراسة، فكان الاطمئنان وانشراح الصدر؛ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال اللورد هيدلي الإنكليزي في كتابه "إيقاظ الغرب للإسلام" - وقد أسلمَ اللورد، وتسمَّى بسيف الرحمن رحمة الله فاروق، وهو رئيس الجمعيَّة البريطانيَّة الإسلاميَّة - قال في كتابه المذكور:

يَميلُ الناس في هذه الأيَّام الحاضرة إلى الكُفر والإلحاد؛ عندما يُطلب منهم أن يَعتنِقوا هذه المذاهب والعقائد التي لا تُفهم، وهناك بلا شكٍّ رغبةٌ واشتهاء إلى ديانة تقبلها العقولُ والميول، فمَن سَمِعَ بمسلم ارتدَّ إلى الكُفر والإلحاد؟ ربَّما كانت هناك حالاتٌ من هذه، إلَّا أنَّني أشكُّ جدًّا فيها.

إنَّني أعتقد أنَّ هناك آلافًا من الرِّجال والنِّساء أيضًا مسلمون قلبًا، ولكنَّ خوفَ الانتقاد، والرَّغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير تآمَرا على منعهم من إظهار معتقداتهم.

إنَّني خطَوتُ هذه الخُطوة، ولو أنَّني أعلم عِلمَ اليقين أنَّ كثيرًا من إخواني وأقاربي ينظرون إليَّ الآن كرُوح ضالَّة، ويُصَلُّون من أجلي، إلَّا أنِّي لستُ - في الحقيقة - في اعتقاداتي اليوم إلَّا كما كنتُ منذ عشرين سَنة تمامًا، ولكنَّ صراحتي في القول هي التي أفقدتني حُسنَ ظنِّهم بي.

الآن وقد شرحتُ بعضًا من الأسباب التي جعلتني أتَّبع الدِّين الإسلاميَّ وقتها، فإنَّني أعتبر نفسي الآن أصبحتُ بإسلامي مسيحيًّا أفضلَ مسيحيةً ممَّا كنت عليه من قبل، فآمُلُ أن يتَّبعَ الآخرون مثالي، ويعتقدون أحقِّيةَ الإسلام الذي أُقِرُّ بكلِّ شهامة وفخر أنَّه أصحُّ الأديان، وأنَّه أصلُ السعادة لأيِّ امرئ ينظر إلى هذه الخَطوة كخَطوة متقدِّمة، لا كخَطوة مضادَّة للمسيحيَّة الحقَّة بأيِّ وجه.

ويقول أيضًا في هذا الكتاب: إنَّني لأعتقد اعتقادًا

راسخًا بأنَّه لو اتُّبِعَت الشريعةُ المحمديَّة التي أتت في القرآن بعناية تامَّة ودِقَّة، لأصبحَ من السَّهل جدًّا حُكمُ الشَّعب، ولا يكون ذلك غريبًا ما دام أكثرُ من نصف رعايا جلالته في مُلكه الشاسع هم من المسلمين.

مرَّ العصرُ الذي كان يمكن أن يُجتَهدَ فيه لإقامة أيِّ دين بقوَّة الأسلحة، إنَّني لمتأكِّد من أنَّ المسلمين - أولئك القوم المتشبِّعون بالإخلاص والوفاء - ما حاولوا قطُّ أن يُقيموا الدِّين الإسلاميَّ بالطُّرق العنيفة، فالفتنةُ والتمرُّد يحرِّمُهما القرآن و﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] إحدى مبادئ الدِّين الإسلامي.

لفتُ الأذهان وإصغاء الآذان هو كلُّ ما يَرغَب فيه المسلمون، وإنِّي لمتأكِّد من أنَّه إذا فَهِمَ رجال إنكلترا تمامًا المعنى الحقيقيَّ للإسلام - العقل والتمييز، والالتجاء إلى النُّهى والشعور - لسَعَوا في أن يُخفُوا سوء فهمهم المُخجِل السائد في الوقت الحاضر.

ينظرُ الأوربيُّون دائمًا إلى الإسلام كأنَّه وحشيَّةٌ وهمجيَّة، فلو علموا كلَّ ما فعلَه محمدٌ لإزالة التوحُّش والهمجيَّة التي لقيَها داخلَ بلاد العرب، لغيَّروا تلك

الأفكارَ حالًا.

إنَّهم هم المبشِّرون المسيحيُّون الذين لم يدَّخروا وسعًا في تحريف الدِّيانة الإسلاميَّة، وإنَّ هذا لأعظمُ الكذب الذي يُخزيهم، وإن كانوا ليظنُّون أن ما يفعلونه حسن، فما أعظمَ الفرقَ بين الطمس التعمُّدي للحقيقة، وبين الحالة التي يسير عليها المبشِّر المسلم في عمله!

كثيرًا ما أُزعجتِ الهيئات الحاكمة في هذه المملكة لقَبول طلبات الهيئات الدِّينيَّة؛ فكَنيسةُ انجلترا، وكنيسة الرُّومان الكاثوليك، وحزب المعارضين، وكثيرٌ غيرُهم معتبَرون جدًّا؛ لأنَّهم ذوو نُفوذ عظيم، وما زال الكلُّ يقولون: هل من مزيد؟

ولكن ليست هناك - بأقصى ما يمكن للإنسان أن ينظر - أيُّ فصيلة دينيَّة من الفصائل المحمَّديَّة تطلب أيَّ سلطة دينيَّة؛ إذ عظمةُ الإسلام أرفعُ من أن تسيطرَ عليها مثلُ هذه الاعتبارات الدَّنيئة، وكلُّ متَّبع اتباعًا حقيقيًّا للنبيِّ العظيم يتطلَّع إلى جَزاءٍ أرقى بكثير من الغنى والفوائد الدُّنيويَّة، كرُقيِّ ضوء الشمس عن ضوء الفسفور.

ليس هناك بابَوات، ولا أساقفة، ولا رُهبان، ولا

قُسُس يطلبون هِباتٍ أو أرباحًا؛ لأنَّ الله نفسَه هو رأس هاتيك الفضائل الرُّوحيَّة.

أنبأنا التَّاريخُ أنَّ الكنائس المسيحيَّة تُطالب دائمًا بشدَّة أن يكون لها سُلطة دنيويَّة، ويمكننا هنا أن نُشيرَ إلى بيع المَغفرة، وتوزيع المعاشات الدَّسِمة بدون جَور أو حَيف، كي نبيِّنَ فظاعةَ الأحوال المُريعة التي كان يجب أن تكونَ أفضل ما تطمحُ إليه النفس، وكيف اختلطَت باعتبارات لمكاسبَ دنيويَّة محضة سافلة.

إنَّنا لا نذهبُ بعيدًا إذا قُلنا بأنَّ القِسط الأوفر من هؤلاء الذين يزعمون بأنَّهم مسيحيُّون يعتبرون أنَّ الدِّيانة هي محضُ نظام أيَّام آحاد محترَمة وحَسَنة؛ لأنَّها تقدِّم لهم فُرصًا استثنائيَّة لعرض أحسن ملابسهم وأزيائهم، والتكلُّم عن جيرانهم.

وهذا الدِّين العجيب ينوي أخذَهم إلى بعضٍ من الجنَّة، ويتوقَّف مركزُهم في هذه الجنَّة على المبلغ المدفوع، على نظام دخول الناس دُورَ التمثيل تمامًا؛ يجلسون بأُجرة معيَّنة في الألواج والطَّابق الأوَّل، وبأُجرة أخرى في الصَّالات والكراسي.

معظمُ دِيانة الغرب ما هي - في الواقع - إلَّا نتيجة خُرافات القرون الوُسطى، وبقايا العصور المظلِمة، ولا تتَّفِق مع تعاليم موسى أو المسيح، فمجيء محمَّد بعدَ المسيح بستِّمئة سنة تقريبًا كشفَ عن عدم صحَّة مثل هذه الأفكار؛ كالتكفير، والتوسُّط الكهنوتي، والتوسُّل إلى القدِّيسين، وكلُّ هذه الطرق المُلبَّكة المحتوي عليها التقرُّب من المولى جلَّ وعلا.

مهما كانت عظمة الشرائع الموسويَّة، ومهما كانت ظرافةُ ورِقَّةُ تلك المبادئ الصَّفوحة، التي أتى بها نبيُّ النَّاصرة (عيسى عليه السلام) - يجب أن يُعرفَ أنَّ الشريعة المحمَّديَّة التي احتوت على الرِّسالة السَّامية تتغلَّب بتذليلها كلَّ العقبات التي تقف في طريق السالك إلى الله.

هناك آياتٌ في القرآن لا تترك شكًّا في معناها، وتنطَبِقُ على جميع هؤلاء الذين يدخلون في دائرة السِّيادة الكهنوتيَّة، أو يتَّخذون مخلوقاتٍ بشريَّة لإرشادهم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١]،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

ديانة المسيح ليست تمامًا ديانة (بولس) الذي أضافَ إليها وغيَّرها تغييرًا فاحشًا، وقد تَرجمت هيئاتٌ مختلفة هاتيك التعاليم، وغيَّرت فيها من وقت لآخر، وليس هناك في الحقيقة تناسُقٌ في تلك المسيحيَّة المزعومة.

ولكنَّنا نجد في الإسلام ما يكفي رغباتِ المخلوقات من الاتِّصال بالله مباشرة، الله الموجود أبدًا، القادر على كلِّ شيء، والحافظ لجميع المخلوقات، ليس هناك في الإسلام إلَّا إلهٌ واحد نعبدُه ونتَّبعه، إنَّه أمامَ الجميع، وفوقَ الجميع، وليس هناك قُدُّوس آخر نُشرِكه معه.

مِفتاح السماء موجود دائمًا، ويمكن إدارتُه بأذلِّ وأقلِّ المخلوقات دون أيِّ مساعدة من نبيٍّ أو كاهن أو مَلَك.

أمَّا هؤلاءِ الذين يجعلون الناسَ يفهمون غيرَ ذلك، ما دعاهم إلى هذا العمل إلَّا حبُّ الفائدة؛ كالرواتب، ومعاشات القُسُس، أو بعض فوائد دنيويَّة أخرى.

ليس غرضي الرئيس أن أهاجِمَ أيَّ فرع معيَّن من فروع

الدِّيانة المسيحيَّة، التي هي خاليةٌ في نظر الكاتب الضعيف من العوائق الظاهرة جليًّا في كثير من الدِّيانات الأخرى.

إنَّ الدِّين مسؤولٌ عن كثير من الآلام والفظائع، وسَفك الدِّماء[1]، وتلك حقًّا لحقيقةٌ مُبكِية، أيمكن إذًا أن يوجد دِين يمكِّن الإنسان العالِم من أن يجمع أمرَه على عبادة الله الواحد الحقيقي، الذي هو فوقَ الجميع، وأمامَ الجميع، بطريقة سهلة، خالية من الحشو والتَّلبيك؟

فكِّرْ لحظة - وذلك تفكيرٌ لازمٌ لكمال البشريَّة في الحقيقة - إنَّه إذا أصبحَ كلُّ فرد في الإمبراطوريَّة الإنكليزيَّة محمَّديًّا حقيقيًّا بقلبه ورُوحه، لأصبحت إدارةُ الأحكام أسهلَ من ذلك؛ لأنَّ الناس سيُقادون بدِين حقيقيٍّ، ولن تبقى هناك جمعيَّاتٌ كنائسيَّة، ولا منشقُّون كي يوفَّق بينهم، ولا ضرائبُ ثقيلة تُدفع للمرور في الطريق إلى الفردوس.

إنَّ الدِّيانة كما جاء بها موسى والمسيح ومحمَّد سهلةٌ

(١) في هذا غموضٌ وإجمال، فإن كان قصدُه الدِّين الحقَّ فهو خطأ، وإن كان قصدُه ما أُلصق بالدِّين من التَّحريفات، كما يوجد في الدِّيانة المسيحيَّة فهو صحيح، وهذا ما يدلُّ عليه سياق كلامه، أو يكون قصَد ما يفعله بعضُ المنتسبين للدِّين من تجاوز حدودِ الدِّين والعدوان، فكذلك.

جدًّا، إلَّا أنَّ الخلطَ الذي أتاها من الآخرين الذين سَعَوا في أن يُحسِّنوا الوحيَ الإلهيَّ جعلَها مُعقَّدة، يرتبك وييأس منها مَن يستعمل عقلَه في السَّعي وراءَ الحقيقة بجِدٍّ ونشاط.

رُوح الإسلام تُحلِّق فوق أشياءَ أرقى وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة، والاختلافات الجِنسيَّة في الشرق والغرب، وإذا كانت المسيحيَّة الشرقيَّة التي علمت بنبيِّ الناصرة العظيم قد سارت سيرًا حثيثًا في إضاءة طريق العالم الإنساني، فلماذا لا يستمرُّ الدِّينُ الإسلامي الأوسعَ والأسهل، كما أتى به النبيُّ العربيُّ الكريم في أعماله الحسنة، ما دام أنَّه ليس هناك سببٌ جوهريٌّ يمنع ذلك؟

من عدَّة سنينَ خلت كان أحدُ أفكاري الرئيسة هو: كيف يمكن الإسلام أن يتغرَّب (يصبح غربيًّا)، حتى يُمارسَ بالأُمم الأوربيَّة؟ أو بعبارة أخرى: كيف يمكننا نحن - معشرَ الغربيِّين - أن نُعِدَّ أنفسنا لنكتبَ ونفقَه معنى الإسلام الحقيقي؟ ثم تَلا ذلك فكرٌ آخر، وهو: كيف أنَّنا لم نشكُ من جنسيَّة المسيح الذي نعتقد أنَّه كان آسيويًّا محضًا؟ كانت أمُّه العذراء مريم آسيويَّة، وكان موسى،

وكلُّ الأنبياء المُوحى إليهم شرقيِّين، وكان النبيُّ الكريم محمَّد شرقيًّا مثل الآخرين، وأُنزلت عليه الشريعة من الله.

فالقرآنُ هو من كلام الله ﷻ، كما كان الإنجيلُ وباقي الكتب المنزلة الأخرى، وهو - القرآن - يُثبِّت ويُحِقُّ الكتبَ المقدَّسة الأخرى والوحيَ السابق.

القرآن يُضيف تعاليمَ أخرى تؤكِّد أهميَّة تلك التعاليم الماضية، وفوقَ ذلك فهو يُحرِّم كلَّ نكهات العبادة الوثنيَّة، ورُوح الوحي هو ألَّا يقترنَ اسمُ الله القويِّ العليم الرحيم بأيِّ اسم آخر.

رُوح الشُّكر هي خلاصةُ الدِّين الإسلامي، والابتهال أصلٌ في طلب القيادة والإرشاد من الله.

إنَّه وإن كان شكري لله على كَرمِه وعنايته كان متأصِّلًا فيَّ منذ صغري وأيَّام حداثتي، إلَّا أنَّني لا أستطيع أن أشاهدَ ذلك من خلال السِّنين القليلة الماضية التي قرعَ فيها الدِّين الإسلاميُّ لُبِّي حقًّا، وتملَّك رشدي صدقًا، وأقنعني نقاؤه، وأصبح حقيقةً راسخةً في عقلي وفؤادي، إذِ التقَيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتُهما قطُّ من قبل، ونجَوت من العقائد الغريبة المتعلِّقة بسائر فروع الكنيسة المسيحيَّة

المختلفة، واستنشقتُ تلك النَّجاة، كما أستنشق هواءَ البحر الخالص النَّقي، وبتحقُّقي من سلاسة وضياء وعظمة الإسلام ومجدِه، أصبحتُ كرَجلٍ قفزَ من سِرداب مظلِم إلى فسيح من الأرض تُضيئه شمسُ النهار.

عندما قررتُ نهائيًّا أنَّه لا يمكن الحصول على أيِّ راحة من التعليمات الكهنوتيَّة، أتتني فكرةٌ بأنَّه من المؤكَّد أنَّ الله يلاحظ ويُدبِّر كلَّ إرادة، وكلَّ حركة وعمل، إنَّه يفعل ذلك حقًّا، إلَّا أنَّ التعليماتِ الموجودةَ من صحائف القرآن مكَّنتني من أن أفقهَ معنى تلك الفكرة المريحة راحةً عجيبةً بطريقة كانت تستحيل عليَّ سابقًا.

دمَّر التعصُّبُ الدِّينيُّ الأعمى الكنائسَ المسيحيَّة في تنافُسها، إلَّا أنَّ ذلك لا يمكن أن يُقالَ عن الإسلام الذي هو كتلةٌ متَّحدة، فما أحسنَ ذلك إذا كنَّا نحن - معشرَ الغربيِّين - نهجُر في هذا الوقت تلك الأصنافَ الدِّينيَّة المُلَبَّكة، ونتَّخذ الدِّين الإسلاميَّ! إنِّي لأعتقدُ اعتقادًا راسخًا أنَّه إذا كُلِّف أحسنُ الأذهان، وأنبهُ العقول الأوروبيَّة بالبحث عن دِينٍ مبنيٍّ على الاعتبارات الدُّنيويَّة والعقليَّة، ولا يخرج عن الوحي السماويِّ الذي أتى به

الأنبياء - لما وجدوا بإجماع الآراء غيرَ الإسلام دينًا؛ فسهولته وعظمته ممَّا لا يختلف فيه اثنان.

أليست من أعظم النِّعَم أن تسنحَ لك فرصةٌ بأن تعتنقَ دينًا يتَّفِق والحِجا، ويُرضي الفؤادَ والضمير، ورغباتِ المرء الداخليَّة، كما أنَّه خالٍ في نفس الوقت من القسوسيَّة والكهنوتيَّة، وباقي التَّلْبِيكات الأخرى؟!

الكنائس المسيحيَّة الكثيرة تُناقِض إحداها الأخرى مناقضة عظيمة، ومعلِّمو لاهوتها (كهنتها) وضعوا عقدةَ التعاليم المسيحيَّة التي لا تُحلُّ، ووضعوا تلك العقائدَ التي تُدهش العقولَ دهشةً عظيمة، حتى إنَّ العقولَ السليمة الصافية، والقلوبَ المبصرة تتوقُ إلى دين مفهوم، مقنِع وسهل، غير معقَّد.

فكَّرتُ وصلَّيتُ أربعين سَنة كي أصلَ إلى حلٍّ صحيح، والرأيُّ السائد عندي هو: أنَّ كلَّ تراكيب هذا الدِّين المزعوم (المسيحي) هي من عمل الإنسان، لا من عمل الله، ويجب عليَّ أن أعترفَ أيضًا أنَّ زياراتي للشرق ملأتني احترامًا عظيمًا للدِّين المحمَّديِّ السَّلِس، الذي يجعل الإنسانَ يعبد الله حقيقةً طولَ مدَّة الحياة، لا في أيَّام

الآحاد فقط.

الإسلامُ دينُ السهولة العظيمة، إنَّه يُرضي أشرفَ رغبات النَّفس، ولا يُناقض - بأيِّ حال من الأحوال - تعاليمَ موسى، أو المسيح.

وقال الأستاذ أتيين دينيه أو ناصر الدِّين دينيه - وهو رسَّامٌ عالميٌّ مشهور، له لوحاتٌ بمتاحف أوربَّا الشهيرة، وقد أعلنَ إسلامَه، وكرَّس حياته لخدمة الدِّين الإسلامي، وألَّف الكتبَ الكثيرةَ عن الإسلام؛ منها: "محمَّد رسول الله"، وكتاب "الحَجُّ إلى بيت الله الحرام"، ورسالة ممتعة وازَنَ فيها بين الإسلام والمسيحيَّة، ودافَع فيها عن الإسلام دفاعًا مجيدًا، أسماها: "أشعَّة خاصَّة بنورِ الإسلام" - قال في هذه الرِّسالة تحت عنوان (مسايرة الطَّبيعة):

لا يتمرَّدُ الإسلامُ على الطبَّيعة التي لا تُغلَب؛ وإنَّما هو يُساير قوانينَها، ويزاملُ أزمانَها، بخلاف ما تفعله الكنيسة من مغالطة الطَّبيعة ومضادتها في كثير من شؤون الحياة؛ مثل ذلك الفرض الذي تَفرِضه على أبنائها الذين يتَّخذون الرَّهبَنة؛ فهم لا يتزوَّجون، وإنَّما يعيشون عُزَّابًا.

على أنَّ الإسلامَ لا يكفيه أن يسايرَ الطبيعة، وألَّا

يتمرَّدَ عليها، وإنَّما هو يُدخل على قوانينها ما يجعلها أكثرَ قَبولًا، وأسهلَ تطبيقًا في إصلاح ونظام، حتى لقد سُمِّي القرآن كذلك بالهدى؛ لأنَّه المرشدُ إلى أقوم مسالك الحياة، ولأنَّه الدَّالُّ على أحسن مقاصد الخير.

والأمثلةُ العديدة لا تُعوِزنا، ولكن للقصد نأخذ بأشهرها، وهو التَّساهل في سبيل تعدُّد الزوجات، وهو الموضوعُ الذي صادَفَ النَّقدَ الواسع، والذي جلبَ للإسلام في نظر أهل الغرب مثالبَ جمَّة، ومطاعِنَ كثيرة، وممَّا لا شكَّ فيه: أنَّ التوحيدَ في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يُعارِض الطَّبيعة، ويُصادم الحقائق، بل هو الحال الذي يستحيلُ تنفيذُه؟

لم يكن للإسلام أمامَ الأمر الواقع - وهو دين اليُسر - إلَّا أن يستبينَ أقربَ أنواع العلاج، فلا يحكم فيه حُكمًا قاطعًا، ولا يأمر به أمرًا باتًّا، والذي فعلَ الإسلام أوَّلَ كلِّ شيء: أنَّه أنقصَ عددَ الزوجات الشَّرعيَّات، وقد كان عندَ العرب الأقدمين مباحًا دون قيد.

وانظر كيف وصفَه الإسلام وصفًا هو غاية في الرِّقة والدقِّة، واللُّطف مع الحكمة، ثم انظر هل حقيقة أنَّ

الدِّيانة المسيحيَّة بتقريرها الجبريِّ لفرعيَّة الزوجة والتوحيد فيها، وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدُّد الزوجات؟ هل يستطيع شخصٌ أن يقولَ ذلك دون أن يأخذَ منه الضَّحكُ مأخَذه؟! وإلَّا فهؤلاء مثلًا ملوك فرنسا - دع عنك الأفراد - الذين كانت لهم الزوجاتُ المتعدِّدات، والنِّساء الكثيرات، وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كلُّ تعظيم وإكرام.

إنَّ تعدُّدَ الزوجات قانونٌ طبيعي، وسيبقى ما بَقِيَ العالَم؛ ولذلك كان ما فعلته المسيحيَّة لم يأتِ بالغرض الذي أرادته، فانعكست الآية معها، وصحونا نشهد الإغراءَ بجميع أنواعه، وكان مَثَلُها في ذلك مَثَل الشجرة الملعونة التي حُرِّمت ثمراتها، فكان التَّحريمُ إغراءً.

على أنَّ التَّوحيدَ في الزوجة - وهي النظريَّة الآخِذة بها المسيحيَّة - تنطوي تحتَها سيِّئاتٌ متعدِّدة ظهرت على الأخصِّ في ثلاث نتائجَ واقعيَّة، شديدة الخطر، جسيمة البلاء، تلك هي: الدَّعارة، والعوانس من النِّساء، والأبناء غير الشرعيِّين، وأنَّ هذه الأمراض الاجتماعيَّة ذات السَّيِّئات الأخلاقيَّة لم تكن تُعرَف في البلاد التي طُبِّقت

فيها الشَّريعة الإسلاميَّة تمامَ التطبيق، وإنَّما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنيَّة الغربيَّة.

ومِن الأمثلة القائمة على ذلك: ما كان من أمر وادي ميزاب؛ حيث تسكن القبيلةُ التي بهذا الاسم في البلاد الجزائريَّة، إذ لم تدخلها الدَّعارة إلَّا بعد ضمِّها إلى فرنسا عام ١٨٨٣م، وقد وصلَ بها الحالُ اليوم أنَّ أربعة بُلدان من مجموع كلِّ سبعة بُلدان قد ابتُلِيَت بهذا.

على أنَّه من جهةٍ أخرى نرى أنَّ الطَّلاق قد يخفِّف بعض الشيء من أضرار هذا التعنُّت في القَصر على زوجةٍ واحدة، ولكن من جهةٍ ثانية نرى أنَّ الطَّلاقَ سيِّئةٌ من السيِّئات، إذًا ماذا؟ إذًا أيُّ الأدواء قد خلا تمامًا من السيِّئات؟!

على أنَّ الكنيسةَ قد أساءت كذلك في مسألة الطَّلاق بمثل ما أساءت في أمر التوحيد في الزوجة، وذلك بمخالفتها أيضًا لقوانين الطَّبيعة.

انظر هل أشدُّ من الحُكم على زوجين شابَّين لم يستطيعا عن بعضهما صبرًا، وقد خابَ ظنُّهما في الزواج، ولم يدركا السَّعادة التي طلباها من وراء ذلك، هل أشدُّ

من الحُكم عليهما بأن يظلَّا يقضيان بقيَّة أيَّامهما في عذاب ونَكَد وشقاء؟

كذلك إذا كان أحدُهما عاقرًا، وكان غيرَ كُفءٍ لزميله، هل يُحرَم الآخر من أن يبنيَ لنفسه بآخر، وأن يُقيمَ له عائلة من جديد؟!

إنَّنا - ونحن في صددِ الطَّلاق - لا تفوتنا حِكمة التَّشريع الإسلاميِّ وهو يرى في فوضى الطَّلاق، فيُسمَع النبيُّ الكريم يقول: «أبغضُ الحلال إلى الله الطَّلاق».

وقال رينيه حينو - وهو كان فرنسيًّا كاثوليكيًّا، وعضوًا بالبرلمان الفرنسي، فاعتنقَ الإسلام، وقامَ بالدَّعوة إلى الإسلام - قال جوابًا لمَن سألَه عن سبب إسلامه:

إنَّني تتبَّعتُ كلَّ الآيات القرآنيَّة التي لها ارتباطٌ بالعلوم الطِّبِّية والصِّحِّية والطَّبيعية، والتي درستُها من صِغَري، وأعلمها جيِّدًا، فوجدتُّ هذه الآياتِ منطبقةً كلَّ الانطباق على معارفنا الحديثة؛ فأسلمت لأنِّي تيقَّنت أنَّ محمَّدًا قد أتى بالحقِّ الصُّراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكونَ معلِّمٌ أو مدرِّسٌ من البشر.

ولو أنَّ كلَّ صاحب فنٍّ من الفنون، أو علمٍ من العلوم، قارنَ كلَّ الآيات القرآنيَّة المرتبطة بما تعلَّمَ جيدًا، كما قارنتُ أنا، لأسلمَ بلا شك، إن كان عاقلًا خاليًا من الأغراض.

وقال محمَّد مارما ديوك بكثول - وكان إنكليزيًّا فأسلم -: في رأيي أنَّ الزمنَ الذي نحن فيه أنسبُ الأزمان وأصلحها لنشرِ الدَّعوة الإسلاميَّة في الأرض، وما يظنُّه الظانُّون مثبِّطًا - من نقص القوَّة - هو بالعكس أدعى إلى نشر الإسلام، وأكثرُ ملائمةً للنجاح فيه.

إنَّ لنا في هدنة الحُدَيْبِيَة لعِبرةً نقضي لها العجب كلَّما فكَّرنا فيها، فالصحابةُ - رضوان الله عليهم - وقعت منهم شروط تلك الهُدنة موقعَ الأسى، وكانت لهم منها صدمة عنيفة، لم يَسلَم من تأثيرها بعدَ صاحب الهِداية العُظمى ﷺ غيرُ عدد قليل منهم، في مُقَدَّمتهم الصِّدِّيق رضوان الله عليه.

ولكن هذه الهدنة كانتِ الفتحَ الأكبر للإسلام، حتى إنَّ عددَ الذين دخلوا الإسلام في سَنة واحدة بعد صُلح الحُدَيْبِيَة كان أكثرَ من عدد الذين دخلوا فيه مدَّةَ تسعَ عشرةَ

سَنةً قبل ذلك، والسببُ في هذا الإقبال على الإسلام أنَّ قريشًا وسائرَ العرب لمَّا ظنُّوا الفوز في جانبهم بما حَصَلوا عليه من قيود وعهود، تساهلوا في أمر الاتِّصال بالمسلمين، وزالَ سبب كبير من أسباب صدودهم عن الإصغاء إلى الهِداية الإسلاميَّة، فكانوا يَرَونَ بأعينهم من سيرة أهل هذه الهداية ما يُبهر النظرَ نورًا، وكانوا يسمعون بآذانهم ما يملأ القلبَ حقًّا وإيمانًا؛ لذلك صاروا يدخلون في دين الله أفواجًا، وكان للإسلام بذلك القُوَّة العظمى التي مهَّدت لفتح مكة، وإعلاء كلمة الله فلا يعلو عليها شيء؛ فتبيَّن للذين تلقَّوا صدمة تلك الشروط القاسية في الحُدَيْبِيَة أنَّ هذه المواقفَ وأمثالَها ليس من شأنها أن تحولَ بين الحقِّ وبين ما يستحقُّه من فوز.

ثم قال: إنَّ صوتًا عُلويًّا نسمعه الآن من الحُدَيْبِيَة يُنادينا بأنَّ في الإمكان - بالرغم ممَّا صرنا إليه من التجرُّد من القوَّة - أن نلمَّ شعثنا، ونعودَ إلى نشر هداية ديننا، وأن نُبلِّغَ هذه الهدايةَ إلى البشر أجمع؛ فالشُّعوبُ اليوم أشدُّ إصغاءً إلينا منها في العصور السابقة؛ لأنَّ المشادَّة بين القوَّة والقسوة قد تكون سببًا للصدود عن الإصغاء إلى

الحقِّ، فلم يبقَ على المسلمين إلَّا أن يعملوا، والعملُ يومئذٍ ممكن جدًّا، ولكنَّ له شرطًا واحدًا، ولا مناصَ من تحقيق هذا الشرط، وهو أن نكونَ الآن متحلِّين بالصِّفات التي كان متحلِّيًا بها مسلمو الحُدَيْبِيَة.

فالمسلِمُ المعاصر إذا تحلَّى بالأخلاق الإسلاميَّة الأُولى؛ من صدق واستقامة، وحَزم وعِزَّة نفس، وسَعَى للخير جهدَ الطَّاقة - كان من وراء هذه الأخلاق قُوَّة تستمدُّ الدَّعوة منها، فينتشر الإسلام حتى يعُمَّ الأرض، والشُّعوبُ إنَّما تنظر إلى أهل الدِّين قبلَ أن تنظرَ إلى الدِّين نفسه.

وأضرب لكم المثل بالإسلام في الهند، فإنَّ إلى جانب مسلمي الهند ملايينَ كثيرةً من مواطنيهم الوثنيِّين، وإنَّ منهم مَن إذا أصغى إلى مبادئ الإسلام، وتأمَّلَ فيها بهرَته، وقال: إنَّ هذا هو الحقُّ، وإنَّ هذا هو الذي يجب أن يَدينَ به كلُّ إنسان، لكنَّه لا يملك نفسه بعد ذلك أن يسأل: ولماذا المسلمون أنفسُهم لا يعملون بهذه المبادئ؟! ولماذا لا يهتدون بهذه الهداية؟!

هذه هي العَقَبة الحقيقيَّة الواقعة في سبيل انتشار

الإسلام، فلا بدَّ من تذليلها، وليس بعدَ ذلك ما يَحول بين الإسلام، وبين أن يكونَ دِينَ الإنسانيَّة.

وقال الأستاذُ عبد الله كوليام - وهو إنكليزيٌّ اعتنقَ الإسلام، وصارَ داعيةً مخلصًا - قال في محاضرة له عن الإسلام والرَّسول:

إنَّ هذا المصلح الكبير جاءَ البشرَ بالرِّسالة، ودعا الناس إلى الخير، ومع ذلك فقد نالَه من الأذى والاضطهاد ما يَجدُه كلُّ مصلح عظيم يعمل على خير الإنسانيَّة، فلمَّا تبيَّنَ البشرُ فضلَه بعد قليل دخلوا في دينه أفواجًا، وما زالوا كذلك حتى بلغوا الآن مئات الملايين في جميع أطراف المعمورة.

وقالت اللادي أيفلين كوبولد في كتابها الذي ألَّفَته عن مشاهداتها في الحَجِّ إلى مكَّة المكرَّمة؛ بعدَ أن اعتنقَت الإسلام، وأدَّت فريضةَ الحجِّ:

والإسلامُ كلمةٌ تعني التسليم لله، وهي تعني السلامَ أيضًا، ويُعرف المسلم بأنَّه الرَّجل الذي يسير في حياته وَفقًا لمشيئة خالقِه، وأوامر ربِّه، والذي يعيش بسلام مع الله وعباده، ولعلَّ أجمل ما في الإسلام ما يطَّرد فيه من

وَحدانيَّة إلهيَّة، وأُخوَّة إنسانيَّة، وخلوُّه من التقاليد والبدع، والتصاقه اللصوقَ كلَّه بما في الحياة من أمورٍ عمليَّة.

والإيمانُ في القرآن إنَّما يقوم على العمل الصَّالح، وليس هناك في الإسلام إيمانٌ دونَما عمل صالح أبدًا، وهذا ما يجده المرءُ مردَّدًا في القرآن غيرَ مرَّة في مختلف سُوره، وشتَّى آياته.

ولقد فرضَ الإسلامُ الحَجَّ على المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ فالمريضُ معذور، والفقيرُ كذلك، والمستعبَدُ أيضًا، ويُشترط في الحَجِّ أن تكونَ الطريقُ إليه خِلوًا من الخطر، لا ينتظم فيها مرضٌ ولا ظُلامَة، أمَّا الحَجُّ نفسُه فليس من يُنكِر كبيرَ شأنه، وعظيمَ خَطره، وما يغمُر النفس فيه من انطلاق إلى المُثل الرُّوحيَّة العُليا، وانفلات من أعراض الدُّنيا، والتوجُّه إلى الله بقلب سليم، مع هذه الأُلوف المؤلَّفة من البشَر على اختلاف أمصارهم، وتباعُد لُغاتهم، وتَعدُّد مشاربهم وأذواقهم، يأتون من أقصى الأرض، ويتحمَّلون في طريقهم من المشقَّات، واضطراب السُّبُل، وبُعدِ المسافات ما ليس بالإمكان تقديرُه ولا تصوُّرُه، وكلُّ ذلك ليقفوا في صعيدٍ واحدٍ أمامَ

الله - جلَّ شأنُه - يتقدَّمون إليه بقلوب صافية، وأفئدة مُلتهبة، ودموع جارية، ليس له مثيلٌ في العالَم كلِّه.

ولعمري إنَّ في زيارة هذه الأرض التي نشأ فيها محمَّد، ودعا إلى عبادة الله وحدَه على أديمها، وعُذِّبَ وأُوذيَ وحُورِبَ في سبيل دعوته - هذه لَمِمَّا يُعيد ذِكر التضحيات الهائلة التي لاقاها، والأهوال التي عاناها.

ودعوةُ البشريَّة إلى هذه الأرض مرَّةً في كلِّ عام، يُعيد هذه الذِّكريات ويُغذِّيها، ويُقرِّب الناسَ إلى الله جلَّ جلاله، ويزيد في نور هذه الشُّعلة الإلهيَّة التي أنارتِ العالَم كلَّه.

ومن فوائد الحَجِّ أنَّه يُوطِّد الوَحدةَ الإسلاميَّة، ويُغذِّي الأُخوَّة التي أنشأها محمَّد، ودعا إليها وهو يدعو المسلمين في كلِّ عام مرَّة واحدة إلى التعارُف والتقارُب، والتحدُّث إلى بعضهم بعضًا؛ ليتعرَّفَ المسلم بواسطته على أحوال إخوانه في الإسلام، وشأنهم وأمورهم وأحوالهم، ويذكِّرهم بأنَّهم إخوان، وأنَّه لا فرقَ في الإسلام بين أبيضَ وأسود، وكبير وصغير، فإذا انتهَوا من واجباتهم الدِّينيَّة أخذوا بأطراف الحديث في ما يتَّصل بتجارتهم ومَعاشهم،

وقصصهم وأخبارهم، وأدبهم وعلومهم.

فالحَجُّ - والحالة هذه - ليس فرضًا دينيًّا فحسبُ؛ وإنَّما إلى ذلك كلِّه جمعيَّة أُمم عُظمى، ومجامع مختلفة في الفنِّ والأدب، والتِّجارة والسِّياسة، وغير ذلك من ألوان الحياة.

ولقد أشارَ إلى هذه الظاهرة الخطيرة الأستاذ سنوك فقال:

لقد سَبَقَ الإسلامُ الحكوماتِ الأوروبيَّة في التوحيد بين الأُمم، والتقارُب بين الشعوب، بما أقرَّه من وجوب الحَجِّ على كلِّ مسلم يستطيع إلى الحَجِّ سبيلًا، ولعمري إنَّ هذه الديمقراطيَّة والأُخوَّة التي أقرَّها الإسلام، وجعلَها عامَّة بين أتباعه لمِمَّا يُخجِل الجماعاتِ الأخرى التي لم تَفطَن لها، ولا دعت إليها.

وتقول في هذا الكتاب: وإنَّ من طَرافة الإسلام هذا السلامَ الذي أمرَ به القرآن أمرًا؛ فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦]، ألا ترى إلى هذا الإغراق في السَّلام، يودُّ الواحد من المؤمنين أن يفوزَ على رفيقه في القيام بهذا الواجب، فهذا الكبيرُ وهذا

الصغير، وهذا الحرُّ وهذا العبد، كلٌّ يُسلِّم على الآخر بمثل الحرارة التي يسلِّمُ بها الرفيعُ على مثيله، والشريف على نِدِّه.

ولعمري، إذا لم يكن في الإسلام إلَّا هذه الأُخوَّة التي قتلتِ التَّفرقة، وجعلَت من الإنسانيَّة شخصًا واحدًا، لا يعلو واحدُها على رفيقه إلَّا بالتقوى والعمل الصَّالح - لكَفى، ولكان الإسلامُ من خير الأديان، وأقربِها إلى الله، وأرفعِها درجات.

ولقد أشارَ المستر بيكشول - الكاتبُ الإنكليزي - إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذَّة في تاريخ الإنسانيَّة، وراحَ يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم، يعمُّ الغربَ من أقصاه إلى أقصاه، ويتَّصل بين المرء وولده، وشقيقه ونسيبه وجاره، وكيف أنَّ الإسلامَ يقف وحيدًا في هذه الظاهرة، حيث تقوم الأُخوَّة الإسلاميَّة فيه مَقامَ العصبيَّة والجوار، وغيرها من الصِّلات والعُرى.

وتتحدَّثُ كثيرًا في هذا الكتاب عن مزايا الإسلام وفضائله العظيمة، وتقول بعد ذلك: ولقد كانَ العَربُ قبل محمَّد لا شأنَ لها، ولا أهميَّة لقبائلها ولا لجماعتها، فلمَّا

جاءَ محمد خلقَ هذه الأمَّة خلقًا جديدًا، يصحُّ أن يكون أقربَ إلى المعجزات؛ فغلبَتِ العالَم، وحَكمَت فيه أجيالًا وأجيالًا، حتى دبَّ فيها الفساد، وتطرَّقَ إليها التَّرَف؛ فانهارت حضارتُها، وانطفأت معالمها، وأُصيبَ العالَم والحضارة من سقوط العرب وانهيار سُلطانهم بخسارة لا تُعوَّض.

وفي موضع آخر من الكتاب تُشير إلى تعدُّد الزوجات في الإسلام، وتُورد ما كتبَه المستر بيكتول في قوله:

يقول بعضُهم: إنَّ تعدُّد الزوجات من الواجبات في الإسلام، والواقع أنَّ الأمر غير ذلك؛ فتعدُّدُ الزوجات ليس في الإسلام واجبًا، وهو في الحقيقة مثله في المسيحيَّة، وقد كان تعدُّدُ الزوجات من سنوات أمرًا واقعًا في المسيحيَّة، ولكنَّه ألا يصحُّ أن يُنظرَ إليه نظرةَ حقٍّ وعدل؟! خصوصًا وأنَّه يرفع بعضَ الحَيْف عن المرأة، ويقرِّر لها مركزًا تحاول المدنيَّة الغربيَّة إغفالَه، ذلك أنَّ الزواجَ الواحد لم يكن في وقتٍ من الأوقات أمرًا واقعًا في أوربَّا، وبسببه نرى نساءً كثيرات تُرمى في الأزقَّة، ويُرفض الاعتراف بهنَّ بسبب هذه العقيدة التي ليس هناك

مَن يحافظ عليها، فالإسلامُ - والحالة هذه - يضع حدًّا لهذه الظاهرة البغيضة، ويسمحُ للمرأة التي تتعلَّق بشخص متزوِّج أن تعيشَ عِيشة شريفة حرَّة محترَمة.

وليس مَن ينكر ما نراه في أوربَّا اليوم من ظاهرة تغرير المرأة، وكيف أنَّ هناك نساءً كثيراتٍ يسقطن إلى أقصى دَرَكات الانحطاط والسَّفالَة، فالسَّماح بتعدُّد الزوجات في الإسلام يضعُ حدًّا - والحالة هذه - لتعدُّد الزوجات الموجود في الغرب، والذي لا تقرُّه القوانين، ولكنَّه أمرٌ واقع، والذي تكوَّن من نتيجته إقفال الباب في وجوه النساء اللاتي يرميهنَّ سوءُ حظِّهنَّ في مهالك الرذيلة، فيسقطن وأولادُهنَّ في الشوارع ناعسات بغيضات.

أمَّا الأستاذُ محمَّد أسد النمساوي - الذي أسلم، وغيَّرَ اسمه السابق ليوبولد فايس، وألَّفَ كتاب "الإسلام على مفترق الطرق"، و"منهاج الحكم في الإسلام"، و"في الطريق إلى مكة" - فقال في كتابه "الإسلام على مفترق الطرق"، بعد أن ذكرَ ما صادفَه بعدَ إسلامه:

ومنذ ذلك الحِين وهذا السؤال يُلقَى عليَّ مرَّةً بعدَ مرَّة: لماذا اعتنقتَ الإسلام؟ وما الذي جذبكَ منه خاصَّة؟

وهنا يجب أن أعترفَ بأنِّي لا أعرف جوابًا شافيًا؛ لم يكن الذي جذبني تعليمًا خاصًّا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب، والمتراصُّ بما لا نستطيع له تفسيرًا من تلك التعاليم الأخلاقيَّة، بالإضافة إلى منهاج الحياة العمليَّة، ولا أستطيع اليوم أن أقول: أيُّ النواحي قد استهوتني أكثرَ من غيرها، فإنَّ الإسلام - على ما يبدو لي - بناءٌ تامُّ الصَّنعة، وكلُّ أجزائه قد صِيغَت ليتمِّمَ بعضُها بعضًا، ويشُدَّ بعضُها بعضًا، فليس هناك شيءٌ لا حاجةَ إليه، وليس هنالك نقصٌ في شيء، فنتجَ من ذلك كلِّه ائتلافٌ متَّزنٌ مرصوص، ولعلَّ هذا الشعور من أنَّ جميع ما في الإسلام من تعاليمَ وفرائضَ قد وُضِعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي، وربَّما كانت مع هذا كلِّه أيضًا مؤثِّرات أخرى يصعب عليَّ الآن أن أحلِّلَها.

ثم يذكر اختلاطَه بالمسلمين، وتعرُّفَه على وجهات نظرهم المختلفة، ويقول: هذه الدِّراسات والمقارنات خلقت فيَّ العقيدة الراسخة بأنَّ الإسلام من الوجهتين الرُّوحيَّة والاجتماعيَّة لا يزال - بالرغم من جميع العَقَبات التي خَلَقَها تأخُّر الإسلام - أعظمَ قوَّة نهَّاضة بالهِمَم

عرَفَها البشر، وهكذا تجمَّعت رغباتي كلُّها منذ ذلك الحين حولَ مسألة بَعثِه من جديد.

ويقول: نحن نعدُّ الإسلام أسمى من سائر النُّظُم المدنيَّة؛ لأنَّه يشمل الحياةَ بأسرها، إنَّه يهتمُّ اهتمامًا واحدًا بالدُّنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد وبالمجتمع، إنَّه لا يهتمُّ فقط لما في الطبيعة الإنسانيَّة من وجود الإمكان إلى السُّمُو؛ بل يهتمُّ أيضًا لما فيها من قيودٍ طبيعيَّة.

إنَّه لا يحملنا على طلب المحُال، ولكنَّه يَهدينا إلى أن نستفيدَ أحسنَ الاستفادة ممَّا فينا من استعداد، وإلى أن نصلَ إلى مستوًى أسمى من الحقيقة، حيث لا شِقاقَ ولا عِداءَ بين الرأي وبين العمل، إنَّه ليس سبيلًا بين السُّبُل، ولكنَّه السبيل.

وإنَّ الرجلَ الذي جاءَ بهذه التعاليم ليس هاديًا من الهُداة، ولكنَّه الهادي؛ فاتِّباعه في كلِّ ما فعلَ وما أمرَ اتِّباعٌ للإسلام عينِه، وأمَّا اطِّراح سُنَّته، فهو اطِّراحٌ لحقيقة الإسلام.

ويقول أيضًا: ومن بين سائر الأديان نجدُ الإسلامَ وحدَه يُتيح للإنسان أن يتمتَّعَ بحياته الدُّنيا إلى أقصى حدٍّ،

من غير أن يضيِّعَ اتِّجاهه الرُّوحيَّ دقيقةً واحدة، وهذا يختلف كثيرًا عن وجهة النظر النصرانيَّة.

إنَّ الإنسانَ - حسَبَ العقيدة النصرانيَّة - يتعثَّرُ في الخطيئة الموروثة التي ارتكبَها آدم وحوَّاء، وعلى هذا تُعتبر الحياةُ كلُّها - في نظر العقيدة على الأقلِّ - واديًا مظلمًا للأحزان.

إنَّها الميدانُ الذي تَعتَرِكُ فيه قوَّتان: الشرُّ المتمثِّل في الشيطان، والخيرُ المتمثِّل في المسيح، إنَّ الشيطانَ يحاول بواسطة التَّجارب الجسديَّة أن يسدَّ طريقَ النفس الإنسانيَّة نحوَ النور الأزلي، إنَّ النفسَ مِلك المسيح، ولكن الجسد ملعَبٌ للمؤثِّرات الشيطانيَّة. وقد يمكن التعبير عن ذلك بوجهٍ آخر: إنَّ عالمَ المادَّة شيطانيٌّ في أساسه، بينما عالَم الرُّوح إلهيٌّ خَيِّر، وإنَّ كلَّ ما في الطبيعة الإنسانيَّة من المادَّة؛ أي: الجسد - كما يُؤثِر اللاهوت النَّصرانيُّ أن يدعوَه - فإنَّما هو نتيجة مباشِرة لزلَّة آدم، حينما سَمِعَ نصيحةَ الأمير الجهنميِّ للظُّلمة والمادَّة؛ يعني: إبليس.

من أجل ذلك كان حتمًا على الإنسان عندَهم إذا شاءَ أن يلفتَ قلبَه عن عالم اللَّحم إلى هذا العالَم الرُّوحيِّ

المقبِل، حيث تَحُلُّ الخطيئة بالبشريَّة بتضحية المسيح؛ أي: بفِداء المسيح.

أمَّا في الإسلام، فإنَّنا لا نعلم عن خطيئة أصليَّة موروثة، من أجلِ ذلك ليس ثَمَّة أيضًا غفرانٌ شاملٌ للإنسانيَّة فيه.

إنَّ المغفرةَ والغضبَ أمران شخصيَّان؛ إنَّ كلَّ مسلم رهينٌ بما كسب، فهو يحمل في نفسه جميعَ وجوه الإمكان للنجاة الرُّوحيَّة، أو للخيبة الرُّوحيَّة، ولقد قال القرآن الكريم في النفس الإنسانيَّة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النّجم: ٣٩].

ولكن كما أنَّ الإسلامَ لا يشارك النَّصرانيَّة فيما تنصُّ عليه من الناحية المظلِمة في الحياة، فإنَّه يعلِّمنا - على كلِّ حال - ألا نعلِّقَ على الحياة أهميَّةً مُغالًى فيها، كالتي تقول بها المدنيَّة الغربيَّة الحاضرة.

إنَّ الغربَ الحديث - بصرف النظر عن نصرانيَّته - يَعبُد الحياة بالطَّريقة نفسِها التي ينظر بها النَّهِمُ إلى الطَّعام؛ إنَّه يلتهمه، ولكن لا يحترمه!

أمَّا الإسلامُ فإنَّه ينظر إلى الحياة الدُّنيا بهدوء واحترام، إنَّه لا يعبُد الحياة، ولكنَّه ينظر إليها على أنَّها دارُ ممرٍّ في طريقنا إلى وجودٍ أسمى، ولكن بما أنَّها دارُ ممرٍّ ضروريَّة، فليس من حقِّ الإنسان أن يحتقرَ حياته الدُّنيا، ولا أن يبخسَها شيئًا من حقِّها.

إنَّ سفرنا في هذا العالم أمرٌ ضروري، وجزءٌ إيجابيٌّ من سُنَّة الله، من أجل ذلك كان لحياة الإنسان قيمةٌ عُظمى، ولكن يجب ألَّا ننسى أنَّها قيمةُ الواسطة إلى غاية فقط، ثم ليس هنالك مجالٌ في الإسلام للتفاؤل المادِّي، كما هو في الغَرب الحديث، الذي يقول: مملكتي في هذا العالَم وحدَه، ولا لاحتقار الحياة الذي يَجري على لسان النَّصرانيَّة: إنَّ مملكتي ليست من هذا العالَم.

إنَّ الإسلامَ يتخيَّر في ذلك طريقًا وسطًا، ولذلك يُعلِّمنا القرآن أن ندعوَ فنقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، وهكذا نرى أنَّ قَدْرَ هذا العالم وما فيه من متاع حقَّ قدْرِه لا يقف حَجَرَ عثرةٍ في سبيل جهودنا الرُّوحيَّة.

إنَّ النجاحَ الماديَّ مرغوبٌ فيه، ولكنَّه ليس غايةً في

نفسه، إذ إنَّ الغاية من جميع نشاطنا العمليِّ يجب أن تكونَ خُلقًا، ثم احتفاظًا بأحوالٍ فرديَّة واجتماعيَّة، كتلك التي يمكن أن تعملَ على ترقية الفضائل الخُلقيَّة في البشر، وعلى هذا المبدأ ترى الإسلامَ يقود الإنسانَ نحو الشعور بالتَّبِعَة الأدبيَّة في كلِّ ما يعمل، سواءٌ أكان ذلك جليلًا أم ضئيلًا.

إنَّ الإسلامَ لا يسمح بالتفريق بين المَطالب الأدبيَّة والمَطالب العَمليَّة في وجودنا هذا؛ ففي الأشياء كلِّها لنا خَيارٌ واحد بين الحقِّ والباطل، وليس ثَمَّة من منزلةٍ بين المنزلتين، وهكذا كان الإصرارُ في الإسلام على أنَّ العملَ عنصرٌ لا غِنى عنه في الفضائل الخُلقيَّة - شديدًا.

فعلى كلِّ مسلم أن ينظرَ إلى نفسِه على أنَّه مسؤولٌ شخصيًّا عن نشر كلِّ أنواع السَّعادة حولَه، وأن يسعى إلى إقرار الحقِّ، وإزهاقِ الباطلِ في كلِّ زمان، وفي كلِّ ناحية، ونحن نجد مصداقَ ذلك في آية من القرآن الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

هذا هو التبرير الأدبيُّ للنشاط الظالِم في الإسلام -

تبريرُ الفتوح الإسلاميَّة الأولى، أو ما يُسمُّونه بالتَّوسع الاستعماري.

إنَّ الإسلام استعماريٌّ إذا لم يكن بدٌّ من استعمال هذا التعبير، ولكن هذا النوع من الاستعمار لم يحثَّ عليه حبُّ السيطرة، وليس فيه شيءٌ من الأنانيَّة الاقتصاديَّة أو القوميَّة، ولا شيء آخر من الطَّمع في أن تزيدَ أسبابُ رفاهيتنا الخاصَّة على حساب شعبٍ آخر.

ولم يُقصَد منه في يوم من الأيام إكراهُ غير المؤمنين على الدُّخول في الإسلام؛ لقد قُصدَ به دائمًا ما يُقصَد به اليوم من بناء إطار عالميٍّ لأحسنَ ما يمكن من التطوُّر الرُّوحيِّ للإنسان، إنَّ المعرفةَ بالفضائل - حسبَ تعاليم الإسلام - تفرض على الإنسان من تِلقاء نفسِه تَبِعَةَ العمل بالفضائل، وأمَّا الفصل الأفلاطونيُّ بين الخير والشرِّ، من غير حثٍّ على زيادة الخير ومحو الشرِّ - فإنَّه فِسقٌ عظيم في نفسه.

إنَّ الأخلاق في الإسلام تحيا وتموتُ مع المسعاة الإنسانيَّة، للعمل على نُصرتها في الأرض. اهـ.

***

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة، وهي كثيرةٌ جدًّا، فمَن أرادَ التوسُّع في ذلك، فعليه بمطالعة الكتب المؤلَّفة في هذا الشأن.

واللهَ نسأل أن يوفِّقَ الجميع للخير والهدى، وأن يهديَهم للأخذ بأسباب النَّجاة والفلاح، والله يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

المنتخَب من المقالات
مجموعة من المقالات نُشرت
(بين عام ١٣٧٥ و١٣٨٠هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على أفضل خَلقه؛ نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحابته والتابعين؛ وبعد،

فهذه بعضُ مقالات كنتُ قد نشرتُها في الصُّحف المحليَّة، في أوقاتٍ متفاوتة، وهي تبحثُ في موضوعات دِينيَّة واجتماعيَّة انتخبتُها من مقالات عديدة، ورأيتُ طبعَها في هذا الكتاب، وعسى أن يكون فيها ما يُحفِّز الهمَّة، أو يُذكِّر غافلًا.

وما توفيقي إلَّا بالله، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل.

زيد الفيَّاض

الذَّبح لغير الله شِركٌ صُراح

الذبيحةُ التي يَتقرَّب بها المسلمُ إلى الله يُؤجَر عليها ويُثاب؛ لأنَّها عبادة محبوبة إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ومَن صرفَ هذه العبادةَ لغير الله كائنًا ما كان، فقد ألَّهَ المخلوقَ مع الخالق، وأشركَ بالله، وذبيحتُه حرام، لا يحلُّ أكلُها؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لعنَ الله مَن ذَبَحَ لغير الله».

وفي "إبطال التنديد" للعلَّامة الشيخ حمد بن عليِّ بن عَتيق ما يلي:

«قال النووي: وأمَّا الذَّبحُ لغير الله، فالمرادُ به أن يُذبحَ لغيرِ اسم الله، كمَن يَذبح للصَّنم، أو للصَّليب، أو لعيسى، أو للكعبة، ونحو ذلك، فكلُّ هذا حرام، ولا تَحِلُّ هذه الذَّبيحة، سواءٌ كان الذَّابح مسلمًا أو نصرانيًّا أو

يهوديًّا؛ نصَّ عليه الشافعي، واتَّفقَ عليه أصحابنا.

فإن قَصَدَ مع ذلك تعظيمَ المذبوح له غير الله، والعبادةَ له كان ذلك كفرًا، فإن كانَ الذَّابح مسلمًا قبل ذلك صارَ بالذَّبح مرتدًّا، وقد ذكرَ الشيخُ إبراهيم المَرْوَزِيُّ من أصحابنا: أنَّ ما يُذبح عند استقبال السُّلطان تقرُّبًا إليه، أفتى أهلُ بُخارَى بتحريمه؛ لأنَّه ممَّا أُهِلَّ لغير الله تعالى.

أملاه عليَّ شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن.

وقال شيخُ الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٧٣] ظاهره: أنَّه ما ذُبِحَ لغير الله، مثل أن يقول: هذا ذبيحةٌ لكذا.

وإذا كان هو المقصودَ، فسواء لُفِظَ به أم لم يُلفَظ، وتحريم هذا أظهرُ من تحريم ما ذبحَه للَّحم، وقال فيه: باسمِ المسيح ونحوه، كما أنَّ ما ذبحناه متقرِّبين به إلى الله كان أزكَى وأعظم ممَّا ذبحناه للَّحم، وقلنا عليه: بسم الله.

فإنَّ عبادةَ الله بالصلاة والنُّسُك له أعظمُ من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، وكذلك الشِّرك بالصَّلاة لغيره والنُّسُك لغيره أعظمُ من الاستعانة باسمه في فواتح

الأمور، فإذا حرُمَ ما قيل فيه: باسم المسيح والزُّهَرَة، فلأن يحرُمَ ما قيلَ فيه: لأجل المسيح أو الزُّهَرَة، أو قُصِد به ذلك - أولى؛ فإنَّ العبادةَ لغير الله متقرِّبًا به إليه لحرام، وإن قال فيه: بسم الله». اهـ ما ذكره الشيخ حمد.

وكلامُ العلماء كثيرٌ جدًّا، ولكنَّا أردنا التنبيه فقط.

والذَّبح لغير الله - كما هو واضحٌ لدى كلِّ سليم الفِطرة، لم تتلوَّث عقيدتُه بزيغ وانحراف - أقول: إنَّه معلومٌ بالضرورة تحريمُه، وقد تبيَّنَ من الكلام السابق المُستَنِد إلى النصوص الشرعيَّة المُحكَمة أنَّ التقرُّب بهذه العبادة لغير الله شِركٌ ووثنيَّة، وعادةٌ جاهليَّةٌ ضالَّة.

وفَّقَ الله المسلمين لما فيه الخير والصَّلاح.

حول الطَّبيعة والإنسان[١]

طالعتُ في "صحيفة البلاد" كلمة بعنوان: (الطَّبيعة والإنسان) في العدد (١٤٠)، بتوقيع: خالد الشَّعراوي، وقد دُهِشتُ لوجود بعض كلمات وردت في كلمته المُشار إليها، كهذه العبارة: «قبل أن يوجدَ الإنسان، وقبلما نَرَى الحياة تدبُّ دبيبَها على وجه الأرض، كانت الطَّبيعةُ هي المسيطرة على المكوِّنات الأرضيَّة، وكانت للطَّبيعة قُواها وخوارقها»!

ثم يَذكرُ مقارناتٍ بين قُوى الإنسان وقُوى الطَّبيعة - على حدِّ تعبيره - كالجبال الشاهقة، والمحيطات العظيمة، والسُّفن الهائلة، والسماء والنُّجوم والأقمار، إلى الأنهار الضخمة التي تَنفجِر مياهها وتنساب على الأرض، فتبعث الحياةَ والحركة فيها - كلُّ ذلك من عمل الطبيعة، وكلُّ ذلك من إنتاج الخوارق الطَّبيعيَّة، التي يعجِز الإنسانُ عن الإتيان بمثلها، ومثل قوَّتها إلى الأبد!

---

(١) نُشرت في "صحيفة البلاد" العدد (١٤٨)، في ٢٣/ ١/ ١٣٧٩هـ.

هكذا يتكلَّم صاحبُ كلمة (الطَّبيعة والإنسان)؛ فهو يرى أنَّ كلَّ هذه الأشياء الكونيَّة هي من عمل الطَّبيعة، وإنتاج الخوارق، وإنَّه لعجبٌ أن يستسيغَ التفوُّه بهذا الكلام، وينسُبَ ما في الكون لصُنع الطَّبيعة، وكان الواجب عليه - كمسلم له عقل يميِّز به - أن ينسُبَ الأمر إلى مستحقِّه، والمخلوق إلى خالقه لا إلى الطَّبيعة المخلوقة.

ومع أنَّا نُحسِن الظنَّ بالكاتب، إلَّا أنَّ هذا لا يمنعنا من إبداء الحقيقة، والجهر بالصَّواب، وكان المفروض ألَّا يتسرَّع بإطلاق مثل هذه الكلمات، التي قد تَؤولُ إلى السَّير في رِكاب الفلاسفة الملحدين، ومن حَذا حَذوَهم.

إنَّ البشرَ والكونَ وجميعَ الأشياء مخلوقةٌ لله، وإنَّ السموات السَّبع، والأَرَضين السَّبع تُسبِّح لله العليِّ القدير؛ كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ

خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

هذه الآيات العظيمة التي أمرَنا الله بالتفكُّر فيها، والاعتبار بما فيها من إبداع وإحكام؛ لنستدلَّ بها على عظمة الخالق، وأنَّه المستحقُّ لأن يُفردَ بالعبادة والذلِّ والخضوع؛ لأنَّ الإقرار بوجود الربِّ أمرٌ فطري، والمشركون الذين بُعِثَ إليهم الرُّسلُ لم يكونوا يُنكرون وجودَ الخالق، بل كانوا يعرفون ذلك في قَرارة نفوسهم، ويعترفون بذلك، إلَّا مَن جحدَ بغيًا كفرعون؛ فإنَّه كان مستيقنًا بوجود الله، كما قال الله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وإنَّما كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى؛ يتوسَّلون بها، ويستشفعون بها، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ولكن بعدَ ظهور موجات الإلحاد، ولا سيَّما في هذا العصر الذي كثُرت فيه موجاتُ الإلحاد والإباحيَّة؛ من

شيوعيَّة، وماسونيَّة، ووجوديَّة، وغيرها - انخدعَ كثيرون ممَّن جَهِلَ الشَّرائع، وانساقَ في تيَّارات الإلحاد، وصدَّقَ الدِّعاياتِ المُغرِضة التي تطعُن في الدِّين، وتُشكِّك في الإيمان، وتُريد أن تجتذبَ الناس إلى ماديَّة متجمِّدة، وبهيميَّة سافلة، وأنكرَ عقلَه وإحساسه، حتى صار آلةً صمَّاء، أشبه منه بإنسانٍ له عواطفُه وتفكيرُه ووعيُه.

إنَّهم مساكين، لقد خُدِعوا وطَمَستِ الغشاوةُ قلوبهم وأعينَهم، فهُم في حاجة إلى التَّبصير والإنارة، وهم مرضى في حاجة إلى علاج ناجع، وإن عاندوا وأصرُّوا، فإنَّهم لن يضرُّوا الله شيئًا، وإنَّما يضرُّون أنفسهم فقط؛ كما قال الله في الحديث القُدسي: «يا عبادي؛ إنَّكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نَفعي فتنفعُوني.

يا عبادي؛ لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم - ما زادَ ذلك في مُلكي شيئًا.

يا عبادي؛ لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم - ما نَقَصَ ذلك من مُلكي شيئًا».

والله تعالى هو الرحيم الرؤوف، ومن أجل ذلك أرسَل الرُّسل، وسنَّ الشرائع، وأنزلَ الكتب؛ لئلَّا يكونَ للناس على الله حُجَّة بعدَ الرُّسل، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذر من الله.

والعلماء ورثةُ الأنبياء؛ فيجب عليهم أن يَدعوا إلى الله على بصيرة، وأن يُبيِّنوا الحقَّ للناس، ويردُّوا شُبَه المشبِّهين، ويُبطلوا دعاوى الملحدين، كلٌّ بحسَب استطاعته، وإن لم يفعلوا فما أدَّوا ما وجبَ عليهم، بل هم آثمون؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ومن الواجب على العلماء أن يُبيِّنوا الخطأ الذي قد يزِلُّ به قلم كاتب في أمور الدِّين، وإن كان قد قصدَ خيرًا؛ فإنَّ هذا القصد لا يكون حائلًا دونَ تِبيان ما شَطَحَ به قلمُه، أو زلَّ به لسانُه، وهم عندما يُبيِّنون ذلك لا هدفَ لهم إلَّا تِبيان الحقِّ، والتَّحذير من الوقوع في الزَّلَل، والتَّرغيب في تجنُّب الألفاظ البَشِعة، والأخطاء المُضلَّة، التي كثيرًا ما يكون السبب في ارتكابها هو تعلُّقها بذهن صاحبها، الذي أخَذَها نتيجةَ مطالعة كُتب أولئك

الملاحدة، وقد يكون لا يدري شيئًا عن إلحادهم وكُفرهم، ولا يعلم أنَّ تلك الكلمات والعبارات التي يستعملونها ذاتُ مقاصد خبيثة، وتَؤُول إلى الكُفر والزَّندَقة، وإنكار الغَيبيَّات؛ فيقع من غير قصد في محذور كبير، ويزِلُّ به قلمُه.

هذا؛ وإنَّ تلك العباراتِ التي أشرتُ إليها من كلام الكاتب هي على ما أُرجِّحه، ويغلِب على ظنِّي من قبيل أخذ كلمات من أناس ملحدين، إلَّا أنَّ الكاتب كان قصدُه حسنًا، ولم يكن يدرك ما تجنَح إليه، ولا ما تَصبوا إليه؛ ومن ثَمَّ كتبتُ هذه الكلمة للتَّنبيه، وإيضاح الحقِّ، والله الموفِّق.

في ضوء الشُّموع[1]

في العدد (٥٩) من "صحيفة اليمامة" اطَّلعتُ على كلماتٍ متَّقدة متذمِّرة - إن صحَّ التَّعبير - في ثنايا شموعِ الأستاذ أنور زعلوك:

«ليس هناك حبٌّ ولا كراهية، ولا حِقد ولا شهامة، ولا أيُّ معنًى من هذه المعاني، لو كان هناك حبٌّ لاكتشفنا صورته وشكله ومركَّباتِه، ولاستطعنا أن نحقِّقَ به أنفسنا عندما نريد، وننفُضَه عندما نريد، ولكن لا، إنَّ كلَّ إرادتك لا تساوي شيئًا، لأنَّك مخلوقٌ ضعيف، لا تستطيع شيئًا... إنَّك تحبُّ رغمَ أنفك، لا أسباب، ولا حيثيَّات، هكذا خُلِقت، وهكذا قَدَّرَ الله عليك؛ فاخضَع أيُّها الإنسان، اخضَع، فهذا نصيبك من الحياة، هذه هي الحياة التي رُزِئتَ بها».

هكذا يتحدَّث صاحبُ الشُّموع في ثورة، وبهذه اللهجة السَّاخرة المتشائمة يندفِعُ في تثبيت سلبيَّة صارخة، موغِلة

(١) نُشرت في "صحيفة اليمامة" العدد (٦١)، في ٢٨/ ٥/ ١٣٧٦هـ.

في الجَبر، وماذا في ذاك؟ أليس الإنسان عجيبًا؟ ثم أليس هو في نظر الكاتب يكون سهمًا رغمَ أنفه، لا بأسباب، ولا حيثيَّات، وبناء عليه فليخضعِ الإنسان وليخضَع؛ فليس ثَمَّ طريقٌ قويمٌ غير الاستسلام.

هذه هي النتيجةُ المؤسفة التي توصَّل إليها الأستاذُ بعد التَّمهيد والمقدِّمات، وسمَّاها (شموعًا)، ومَن يدري، فقد تكون شموعًا محترِقة!!

إنَّ ما يُثير الدَّهشة أن نسمعَ هذه الآراء التي تتنافَى صراحةً مع تعاليم الشَّرع، ومقتضيات العقل والواقع؛ إذ إنَّها جميعًا تُقرِّر أنَّ هناك أسبابًا، ومسبَّبات، وأنَّ للمرءِ قُدرة.

ولقد شَجَبَ علماءُ السُّنة قديمًا رأيَ الجَبريَّة المنكرِين قُدرةَ العبد، والقائلين: إنَّه كالرِّيشة في مهبِّ الرِّيح؛ لا اختيارَ له ولا قُدرة، تمامًا كما يزعم الأستاذُ أنَّ الإنسانَ لا يستطيع أن يفعلَ شيئًا، وأن ليس هناك أسباب.

ولستُ بصدد بَسطِ الأدلَّة وسَردِها، فهي من الكَثرة بحيث أستغربُ أشدَّ الاستغراب ما تضمَّنته تلك الكلمات! ولا سيَّما ونحن في عصر العمل السريع - أو عصر الذَّرَّة كما يُسمُّونه - فأيُّ وصمةٍ يُوصَم بها المسلمون، لو أنَّهم

نادَوا بهذه الفكرة الخاطئة في هذا العصر؟! وأيُّ تدهورٍ سيُلاقونه؟ فأيُّ تثبيطٍ للهِمَم يبلغ مبلغَ هذه النظريَّة الداعية للخُمول ونبذ الأسباب؟!

لا شيءَ يخدُم المستعمرين مثل هذه الدَّعوة الخَطِرة.

وبعدُ:

فالمسلمون اليوم في بداية يَقَظةٍ جديدة؛ لِيَستدركوا ما سُبِقوا إليه من التقدُّم في الصِّناعة والقوَّة، ولِيَنفُضوا عنهم غُبارَ الجهل الذي تراكمَ عليهم آمادًا طويلة حينما أعرضوا عن تعاليم الدِّين الحنيف، وصاروا يُضيِّعون أوقاتَهم في لغوٍ من الحديث، ومناقشاتٍ بيزنطيَّة لا جَدوى منها ولا طائل، فبعدَ أن كانت جيوشُهم تدوِّخُ العالَم يومَ كانوا يأخذون بالأسباب، متوكِّلين على الله، متزوِّدين بالأسباب الماديَّة والمعنويَّة، وبعدَ ذلك المجد السامق - انحدروا إلى الحضيض في عصور الانحطاط، والجهلِ بتعاليمِ الدِّين، الذي دعاهم لأخذ الوسائل والأسباب.

والآن وقد بدأتِ الأمَّة الإسلاميَّة تتحفَّز لاستعادة مَجدِها التَّليد الزاكي، وتأخذ من الأسباب بنصيبٍ وافر، الآن واجب كلِّ مسلم - وأخصُّ الدُّعاةَ ورجالَ الصِّحافة

- أن يُساندوا الأمَّة، ويوجِّهوها الوِجهةَ الصحيحة التي دعا إليها محمَّدُ بنُ عبد الله ﷺ، والتي نادى بها القرآنُ منذ أكثرَ من ثلاثةَ عشرَ قرنًا، والتي هي من مقتضيات العقل والفِطرة، وضرورةٌ مُلحَّة، من المستحيل إنكارُها.

وليس من الحقِّ أبدًا، ولا من الإنصاف أن تُشوَّشَ الأفكار، وتُثبَّطَ العزائم، ويُزاد الطِّينُ بِلَّة، فهل يدرك كُتَّابنا الأفاضل هذا الهدفَ النبيل، فيَشرعوا أقلامَهم في التوجيه إليه؟!

تعقيب[1]

قرأت في "جريدة البلاد" السعوديَّة الغرَّاء بتاريخ ٢١ جماد الأول سنة ١٣٧٤هـ، العدد (٢٠٤٢) إجابةً للدكتور حامد هرساني على سؤال سائل عن الصَّرَع: هل هو حقيقة، أو خُرافَة؟ إلخ.

يقول الدكتور الفاضل:

«والعلماء جادُّون في البحث عن علاج سريع - أي: لهذا المرض - وأسباب هذا المرض عديدة، وتختلف باختلاف سِنِّ المريض، وليس بينها وجود جِنِّي أو جِنيَّة يَركَب الإنسان، كما يعتقدُه بعضُ ذوي المرض، أمَّا العلاجُ بالتعاويذ والمحو، فلا فائدةَ منه؛ لأنَّه غير مركَّز على أساسٍ علميٍّ صحيح».

والمجيب يَدَّعي صراحةً وجزمًا أنَّه ليس في حالة من حالات الصَّرع وجودُ جِنِّي أو جِنيَّة تُخالِطُ الإنسان، كما أنَّ العلاجَ بالتعاويذ في نظرِه لا فائدةَ منه.

---

(١) نُشرت في "جريدة البلاد" السعوديَّة في ١٢/ ٦/ ١٣٧٥هـ.

وأودُّ أن أنبِّهَ حضرته إلى أنَّ مثل هذا النفي القاطع في موضوع كهذا غيرُ مناسب - فيما أرى - بل كان ينبغي له فيه التريُّث، أو الاقتصار على ما بَلَغَه علمُه من الطِّبِّ، فقد قال: إنَّ العلماءَ جادُّون في البحث عن علاج سريع لهذا المرض، وحبَّذا لو أنَّنا سِرنا معه، ومع الأطباء الجادِّين في الكشف، ولم ينفِ شيئًا ليس في العلم الحديث، ولا المكتشفات الطِّبية ما يُحيله ويمنعه.

إنَّ كلمة (لا أدري) جميلةٌ في بعض المواطن، حتى من الأطبَّاء، ومتى فُقِدت - نعوذ بالله - فعلى الدُّنيا السلام!!

ومحور نِقاشنا الآن يدور حول مسألتَين:

أولاهما: مخالطة الجِنِّي للإنسي.

وثانيهما: التعاويذ، وهل لها أثرٌ في ذلك؟

ونقول: إنَّ الصَّرَع منه ما سببُه مخالطة الجِنِّي للإنسي، وهذا شيءٌ يَعترِف به كثيرٌ من الأطبَّاء؛ يقول بُقْراط في بعض كتبه - بعد أن ذكرَ علاج الصَّرَع -: «وهذا إنَّما ينفع في علاج الصَّرع الذي سببُه الأخلاط

والمادَّة، وأمَّا الصَّرع الذي يكون من الأرواح، فلا ينفع فيه هذا العلاج».

وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وليس لمَن أنكرَ ذلك حُجَّة يعتمد عليها تدلُّ على النفي، وإنَّما معه عدم العلم، إذ كانت صناعتُه ليس فيها ما يدلُّ على ذلك، كالطبيب الذي ينظر في البدن من جهة صحَّته ومرضه الذي يتعلَّق بمِزاجه، وليس في هذا تعرُّض لمَا يحصل من جهة النَّفْس، ولا من جِهة الجِنِّ، وإن كان قد ه: أنَّ للنفس تأثيرًا عظيمًا في البدن أعظمَ من تأثير الأسباب الطبيَّة، وكذلك للجنِّ تأثيرٌ في ذلك؛ كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: «إنَّ الشيطانَ يجري مِن ابن آدم مَجرَى الدَّم»، وفي الدَّم الذي هو البُخار الذي تسمِّيه الأطبَّاء: الرُّوح الحَيَواني، المنبعث من القلب، الساري في البدن، الذي به حياةُ البدن».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة أيضًا: «ولهذا قد يُحتاج في إبراء المصروع، ودَفع الجِنِّ عنه إلى الضَّرب، فيُضرب ضربًا كثيرًا جدًّا، والضَّربُ إنَّما يقع على الجِنِّي ولا يحسُّ به المصروع، حتى يُفيقَ المصروع، ويُخبِر أنَّه لم يحسَّ

بشيء من ذلك، ولا يؤثِّر في بدنه، ويكون قد ضَربَه بعصا قويَّة على رِجلَيه نحوَ ثلاثمئة وأربعمئة ضربة، وأكثر وأقل، بحيث لو كان على الإنسيِّ لقتلَه، وإنَّما هو على الجنِّي، والجنيُّ يصرخ، ويُحدِّث الحاضرين بأمور متعدِّدة؛ كما قد فعلنا نحن هذا، وجرَّبناه مِرارًا كثيرة - يطول وصفُها - بحضرة خَلق كثيرين».

وقال العلَّامة ابن القيِّم: «وشاهدتُّ شيخَنا يُرسِل إلى المصروع مَن يخاطب الرُّوح التي فيه، ويقول: قال لك الشيخ: اخرجي! فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لك، فيُفيق المصروع، وربَّما خاطبَها بنفسه، وربَّما كانت الرُّوح ماردةً فيُخرجها بالضَّرب، فيُفيق المصروع، ولا يحسُّ بألم، وقد شاهدنا نحن وغيرُنا منه ذلك مرارًا، وكان كثيرًا ما يقرأ في أُذن المصروع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وحدَّثَني أنَّه قرأها مرَّةً في أذن المصروع، فقالت الرُّوح: نعم، ومدَّ بها صوتَه، قال: فأخذتُ لها عصا وضربتُه بها في عروق عُنقِه، حتى كلَّت يدايَ من الضرب، ولم يشكَّ الحاضرون بأنَّه يموت لذلك الضَّرب، ففي أثناء

الضرب قالت: أنا أُحبُّه، فقلت لها: إنَّه لا يحبُّك، قال: أنا أريد أن أحجَّ به، فقلت لها: هو لا يُريد أن يحجَّ معك، فقالت: أنا أدعه كرامةً لك، قال: لا؛ ولكن طاعةً لله ولرسوله، قالت: فأنا أخرج منه، قال: فقعد المصروع يلتفتُ يمينًا وشِمالًا، وقال: ما جاءَ بي إلى حَضرة الشيخ؟! قالوا له: وهذا الضرب كلُّه؟! فقال: وعلى أيِّ شيء يضربُني الشيخ، ولم أُذنب؟! ولم يشعر بأنَّه وقعَ به ضَربٌ البتَّة، وكان يعالِج بآية الكرسي، وكان يأمر بكَثرة قراءة المصروع، ومَن يعالجه لها، وبقراءة المعوِّذتين.

وبالجملة، فهذا النَّوع من الصَّرع وعلاجه لا يُنكره إلَّا قليلُ الحظِّ من العقل والعلم والمعرفة، وأكثر تسلُّط الأرواح الخبيثة على أهله تكون مِن جهة قِلَّة دِينهم، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذِّكر، والتعاويذ والتَّحصينات النبويَّة والإيمانيَّة؛ فتلقَى الرُّوحُ الخبيثة الرجلَ أعزلَ لا سلاحَ معه، وربَّما كان عُريانًا فيؤثِّر فيه هذا، ولو كُشِفَ الغطاءُ لرأيت أكثرَ النفوس البشريَّة صَرْعَى مع هذه الأرواح الخبيثة، وهي في أسرِها وقبضتها تسوقُها حيث شاءت، ولا يمكنها الامتناعُ عنها ولا مخالفتها، وبهذا

الصَّرع الأعظم الذي لا يُفيق صاحبُه إلَّا عند المفارقة والمعاينة، فهناك يتحقَّق أنَّه كان هو المصروعَ حقيقةً، والله المستعان.

وقد روى أحمدُ في "مسنده"، وأبو داود في "سننه"، عن الزارع: أنَّه انطلقَ إلى رسول الله ﷺ فانطلقَ معه بابنٍ له مجنون، أو ابن أخت، قال: فلمَّا قَدِمْنا على رسول الله ﷺ قلت: إنَّ معي ابنًا لي - أو ابنَ أخت لي - مجنون، أتيتُك به تدعو الله له، قال: «ائتني به»، قال: فانطلقتُ به إليه، وهو في الرِّكاب، فأطلقتُ عنه وألقيتُ عليه ثِياب السَّفر، وألبسته ثوبَين حسنَين، وأخذتُ بيده، حتى انتهيتُ به إلى رسول الله ﷺ فقال: «أدْنِه منِّي، اجعَل ظهرَه ممَّا يَليني»، قال بمجامع قال: فأخذَ بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله، فجعلَ يضرب ظهرَه، حتى رأيتُ بياضَ إِبطَيه، ويقول: «اخرُجْ عدوَّ الله! اخرُجْ عدوَّ الله!»، فأقبلَ ينظر نظرَ الصحيح، ليس بنظرِه الأوَّل، ثم أقعدَه رسولُ الله بين يدَيه فدَعا له بماء، فمسحَ وجهه ودَعا له؛ فلم يكن في الوفد أحدٌ بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضُل عليه.

وروى أحمدُ في "المسند" أيضًا عن يَعلى بن مُرَّة،

قال: لقد رأيتُ من رسول الله ﷺ ثلاثًا ما رآها أحدٌ قبلي، ولا يراها أحدٌ بعدي: لقد خرجتُ معه في سفر، حتى إذا كنَّا ببعض الطريق مَرَرنا بامرأة جالسة معها صبيٌّ لها، فقالت: يا رسولَ الله؛ هذا صبيٌّ أصابَه بلاءٌ، وأصابنا منه بلاءٌ؛ يُؤخَذ في اليوم ما أدري كم مَرَّة، قال: «ناوِلينِيه»، فرفعته إليه فجعلته بينه وبين واسطة الرَّحْل، ثم فَغَر فاه فنَفَثَ فيه ثلاثًا، وقال: «باسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدوَّ الله!»، ثم ناولَها إيَّاه، فقال: «القَيْنا في الرَّجْعَةِ في هذا المكان، فأخبرينا ما فَعَل»، قال: فذهبنا ورجعنا، فوجدناها في ذلك المكان معها شِياهٌ ثلاث، فقال: ما فعلَ صبيُّك؟ فقالت: والذي بعثَك بالحقِّ، ما حسسنا منه شيئًا حتى الساعة، فاجتَرِرْ هذه الغَنم، قال: «انزِل؛ خُذ منها واحدة، ورُدَّ البقيَّة...» الحديث.

وجاء في الصحيحَين من حديث عطاء ابن أبي رَباح، قال: قال ابن عبَّاس: ألا أُريك امرأةً من أهل الجنَّة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء؛ أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت: إنِّي أُصْرَع، وإني أتَكَشَّفُ، فادْعُ الله لي! فقال: إن شئتِ صبرتِ ولك الجنَّة، وإن شئتِ دعوتُ الله لك أن

يُعافيَك، فقالت: أصبر، ثم قالت: فإنِّي أتكشَّف، فادْعُ الله ألَّا أتكشَّفَ! فدَعا لها.

ووردت أحاديثُ كثيرة تُثبت أنَّه ﷺ كان يعالِج المُصابَ بهذا المرض، ويقول مخاطبًا الجِنِّي: «اخرُجْ عدوَّ الله! أنا رسولُ الله!»، وفي بعضها أنَّه يضرب المريض ضربًا شديدًا، والضرب إنَّما يقع على الجِنِّي، والشيطانُ - كما صحَّ بذلك الحديث - يجري من ابن آدم مَجرَى الدم، وفي القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥]، والمَسُّ: الجنون.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: قلت لأبي: إنَّ قومًا يزعمون أنَّ الجِنِّيَّ لا يدخل في بدن الإنسي، فقال: يا بُني؛ يَكذبون؛ هو ذا يتكلَّم على لسانه!

وما دامَ قد صحَّ عن رسول الله ﷺ ما يؤيِّد مخالطةَ الجنِّي للإنسي، فلا مجالَ للرجوع ا الأمر معرفتُه مُشاعة بين الناس، وإنكارُه من قبيل إنكار المحسوسات.

ولننتقل للنقطة الثانية: وهي العلاجات بالتعوُّذات والأدعية... إلخ، فهذه فيها تفصيلٌ لا يُغيِّر من ماهيَّة

المسألة شيئًا؛ فإن كانت التعوُّذات والأدعية من آيات القرآن، والأدعية الشرعيَّة الصحيحة، فهذه تجوز المعالَجةُ بها، ومرغوبٌ أيضًا في أن يُعالَج مَن أُصيب بهذا المرض بها، وليس في العلاج بها ما يُعارِض العلم الطبِّي، وقد قال النبيُّ ﷺ لِمَن عالجَ بسورة الفاتحة: «وما يُدريك أنَّها رُقْيَة؟!».

وثبتَ أنَّ من قرأ آية الكرسيِّ في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يَقربه شيطانٌ حتى يُصبح، وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ: أنَّ الشيطانَ عَرَضَ له في صلاته، فتعوَّذَ منه ثلاثَ مرَّات، ثم قال: «أَلْعَنُكَ بلعنة الله التامَّة»، فلم يتأخَّر ثلاث مرَّات، ثم قال: «أردتُّ أن آخُذَه، ووالله لولا دعوةُ أخينا سليمان لأصبحَ مُوثَقًا يلعبُ به وِلدانُ أهل المدينة».

فهذه الأدلَّة الشَّرعيَّة أوضحت أنَّ للدُّعاء والتعوُّذ أثرًا في دَفْعِ الشياطين، وهكذا الحال فيمَن أصابَه مَسٌّ من الجن، أمَّا إن كانت التعوُّذات والأدعية مُبتدعَة، أو غير شرعيَّة، فهذه لا يجوز المعالجة بها بأيِّ حالٍ من الأحوال.

أمَّا أن يكونَ العلاج بالتعاويذ غيرُ مركَّز على أساسٍ

علميٍّ صحيح، ونتيجةً لذلك لا فائدةَ منه - كما تفضَّل حضرةُ الدكتور - فذلك ما لا نستطيع أن نتقبَّلَه، أو نستسيغَه بعد أن عرَفنا من شَرعِنا ما يُعارضه.

دين القوَّة والعزَّة[١]

الإسلامُ دين العزَّة والقوَّة، جاءَ بما فيه خيرُ الإنسانيَّة، وسعادة البشر، فهو إلى جانب ما يدعو إليه من الرَّحمة والشَّفقة، وما يهدف له من خيرٍ للفَرد والمجتمع، فقد حثَّ على أخذ القوَّة، وأَمَرَ أتباعَه بالسَّعي والعمل، وأن يَحموا الدِّين بالسِّلاح، ويجاهدوا الكفَّارَ والمنافقين، فيذودُوا عن حِياض الإسلام، ويُكافحوا ويستميتوا؛ دِفاعًا عن بلادِه إذا ما طمِعَ فيها عدوٌّ غادر.

وأمرَ أتباعَه أن يكونوا أقوياء؛ «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»؛ كما قال خاتمُ الرُّسل - عليه الصَّلاة والسلام - وأمرَهم أن يضعوا المصحفَ في يَدٍ والسَّيفَ في اليد الأخرى، فلا يكونون أذلَّاء ولا مُمتهَنين، وإنَّما أعزَّةً كُرماء، يدافعون عن الحقِّ، وفي سبيل الحق.

ومِن ثَمَّ كان المسلمون الأوائل الذين فَهِموا الإسلام

(١) نُشرت في العدد (١٨١) من "صحيفة اليمامة".

حقَّ الفهم مَرهوبي الجانب، كريمي الشَّمائل، يهتزُّون للإهانة، ويُشمِّرون عن سواعدهم إن أُذِلَّ مسلم، أو اعتُديَ على عِرْض، أو استُبِيحَت بلادُهم، وإن صغُرت حجمًا، وبعُدت مسافة.

فلا عجبَ بعد ذلك أن فتحوا الفتوحَ في أقاصي المعمورة، وكان عهدُهم خيرًا وبركة، ونعمةً شاملة؛ لقد فهموا أنَّ الإسلام لا يُذعِن للاستجداء، ولا الذُّل للمخلوق، وإنَّما يدعو لتوحيد الخالق وعبادته، ويُرغِّب في العمل الشريف النَّبيل، والدِّفاع عن الكرامة أن تُمتَهن.

والإسلامُ هو دينُ الحَنِيفيَّة السَّمْحة، لم يُغفل ما للقوَّة من أثَرٍ فعَّال في حِماية الحقِّ، والدِّفاع عن المظلومين، ونشرِ العدل والخير في ربوع العالَم، حتى يطمئنَّ ويَسعْدَ؛ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

يقول الأستاذ السيِّد/ محمَّد رشيد رضا في كتابه "الوحي المحمَّدي" (ص٢٥٧): «إنَّ الذي يجب أن تكونَ

عليه الدَّولة قبل الحرب هو إعدادُ الأمَّةِ كلَّ ما تستطيع من أنواع القوَّة الحربيَّة، ومن رِباط الخَيل في كلِّ زمان بحسَبِه، على أن يكونَ القصدُ الأوَّل من ذلك إرهابَ الأعداء، وإخافتَهم من عاقبة التعدِّي على بلادها أو مصالحها، أو على أفراد منها أو متاع، أو مصلحةٍ لها، حتى في غير بلادها؛ لأجلِ أن تكونَ آمنةً في عُقْر دارها، مطمئنَّةً في حرِّيتها بدينها، ودماء أهلها ومصالحها وأموالها، وهذا ما يُسمَّى في عُرف العصر (بالسِّلم المسلَّح) أو (التسليح السِّلمي)، وتَدَّعيه الدُّول العسكريَّة فيه زورًا وخِداعًا، فتكذِّبها أعمالها، ولكنَّ الإسلامَ امتازَ على الشَّرائع كلِّها بأن جعلَه دِينًا مفروضًا، فقيَّد به الأمر بإعداد القُوى، والمرابطة للقتال، وذلك قوله عزَّ وجل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سِعدي في كتابه "وجوب التَّعاون بين المسلمين": ويدخل في ذلك التعاونُ على جميع الوسائل والأسباب التي تتَّقي بها ضررَ الأعداء؛ من الاستعداد بالأسلحة المناسبة للوقت، وتعلُّم

الصنائع المُعِينة على ذلك، والسَّعي في تكميل القوَّة المعنويَّة والماديَّة المُعِينة على ذلك؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النِّسَاء: ٧١]، فيدخل في هذا الاستعدادُ بكلِّ المستطاع من قوَّة عقليَّة، وسياسيَّة، وصناعيَّة، وتعلُّم الآداب العسكريَّة، والنِّظام النافع، والرَّمي والرُّكوب، والتَّحرُّز من الأعداء بكلِّ وسيلة يُدركها المسلمون، واتِّخاذ الحصون الواقية.

وقد أمرَ اللهُ ورسولُه بجهاد الكفَّار والمعتدين في آياتٍ كثيرة، وأحاديثَ متنوِّعةٍ؛ بالنَّفس والمال والرأي، وفي حال الاجتماع، وفي كلِّ الأحوال، والأمر بذلك أمرٌ به، وبكلِّ أمرٍ يُعين عليه ويُقوِّمه، وأخبرَ بما للمجاهدين في سبيله من الأجر والثواب العاجل والآجل، وما يدفع اللهُ به من أصناف الشُّرور، وما يحصل به من العِزِّ والتَّمكين والرِّفعة، وما في تركه والزُّهد فيه من الذُّلِّ والضرر العظيم.

وتوعَّدَ النَّاكلين عنه بالخِذلان والسُّقوط الحِسيِّ والمعنوي، وبيَّنَ الطُّرق التي يسلكونها في تقوية معنويَّاتهم، فإنَّه حثَّهم على التآلف والاجتماع، ونهاهم عن التَّباغُض والتَّعادي والافتراق، وذلك أنَّ حقيقة الجهاد هو

الجِدُّ والاجتهاد في كلِّ أمر يُقوِّي المسلمين ويُصلحهم، ويَلُمُّ شعثَهم، ويضمُّ متفرِّقَهم، ويَدفع عنهم عدوانَ الأعداء أو يُخفِّفه، بكلِّ طريق ووسيلة. اهـ.

وإنِّي أُورد هنا بعضَ أحاديثَ وردت في ذلك:

فعن عُقبةَ بن عامر الجُهَني، قال: سمعتُ رسول الله يقول - وهو على المنبر -: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ ألا إنَّ القوَّةَ الرَّميُ، ألا إنَّ القوَّةَ الرَّميُ، ألا إنَّ القوَّةَ الرَّميُ»؛ رواه مسلم.

وعنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ستُفتَح عليكم الأَرَضون، ويكفيكم الله، فلا يعجِز أحدُكم أن يلهوَ بسَهمِه»؛ رواه مسلم.

وعنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن عَلِمَ الرَّميَ ثم تَرَكَه فليس منَّا»، أو «فقد عَصى»؛ رواه مسلم.

وعنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُدخِلُ الله بالسَّهم الواحد ثلاثةَ نفر الجَنَّةَ: صانعَه يحتسب في صنعته الخير، والرَّاميَ به، ومُنَبِّلَهُ. وارمُوا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا، ومَن تَرَكَ الرَّميَ بعدَما عَلِمَه رغبةً

عنه، فإنَّها نِعمةٌ تركَها - أو قال: كفرَها»؛ رواه أحمد وأهلُ السُّنن.

وعند ابن ماجه: «مَن تعلَّمَ الرَّمي ثم تركَه فقد عصاني».

وروى مسلمٌ وأحمد عن أبي موسى: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الجَنَّةُ تحتَ ظِلال السُّيوف».

وعن سَلَمَةَ بن الأَكْوَع، قال: مرَّ النبيُّ ﷺ على نفرٍ يَنْتَضِلون، فقال: «ارمُوا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان راميًا»؛ رواه البخاري.

وعن عمرو بن عَبَسَةَ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن رَمَى بسَهمٍ في سبيل الله فهو له عِدلُ مُحَرَّرٍ»؛ رواه أبو داود، والتِّرمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عُروةَ البارقيِّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الخيلُ مَعقودٌ في نَواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة: الأجْرُ والمَغْنَم»؛ متَّفق عليه.

هذا هو ما يأمر به الإسلامُ من الاستعداد، وأخذ القوَّة، وهذا هو ما جاءت به النصوصُ الكثيرة من الكتاب

والسُّنة، وفِعل السَّلف الصَّالح الذين فَهِموا الإسلام حقَّ الفَهم، فلم يركَنوا للذلِّ والضعف، ولم يستكينوا للخُمول، أو يحرِّفوا النصوصَ الواردة في الإسلام على خلاف حقيقتها، وقد قال النبيُّ ﷺ: «وجُعِلَ رِزقي تحتَ ظلِّ رُمْحي».

تدريب طلَّاب المدارس على استعمال الأسلحة[1]

أمنيَّة طالما راودَت أنفُسَ الكثيرين من الشباب، ورَنَت لها أفئدتُهم، وصارت حُلمًا لذيذًا يُداعب خيالَهم، ويمعنون في التفكير للطريقة التي بها يحقِّقون أمنيَّتهم.

ذلك الحُلم الجميل هو: التدريب على استعمال الأسلحة المختلفة، وإتقان فنٍّ من الفنون الحربيَّة؛ فإنَّ هذه البلاد قد نعِمَت بفضل الله بأمنٍ صارت به مَضرِبَ المثل في أنحاء الدُّنيا، يغبِطها عليه القاصي والدَّاني، وشبَّ الكثيرون من أبنائها في هدوءٍ شامل، بعيدون عن الحروب والاضطرابات، ومن ثَمَّ لم يتمرَّنوا على استعمال الأسلحة، حتى البندقيَّة أضحى إجادةُ الضرب بها مقصورًا على أُناس قليلين.

والعربُ هم أهلُ هذه المِهنة وأساتذتها؛ فلا غَرْوَ أن يتطلَّعَ أحفادُهم لمعرفة هذا العمل، وأن يستنُّوا بسُنَّة آبائهم المجيدة:

ومَـن يُـشـابِـهْ أَبَـهُ فَـمـا ظَـلَـمْ

(١) نُشرت في "صحيفة اليمامة" الصادرة في ١٢/ ٥/ ١٣٧٥هـ.

وغير هذا، فالدِّينُ الإسلاميُّ الحنيف يأمرُهم أن يأخذوا حِذرَهم؛ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] الآية، ويقول النبيُّ ﷺ مؤكِّدًا أهميَّةَ الرَّمي: «ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمي، ألا إنَّ القوَّةَ الرَّمي، ألا إنَّ القوَّةَ الرَّمي».

إنَّ التدريبَ أمرٌ ضروريٌّ لكلِّ فرد من أفراد الرِّجال قد يُدعَى في يوم من الأيَّام حين تُعلَن التعبئة العامَّة، والتجنيد الشامل للدِّفاع عن الدِّين والوطن، فينهض ملبِّيًا داعيَ الجهاد المقدَّس، وعندئذٍ يلتفت إلى مَن يجيد الرِّماية وفنون الحرب! وإلَّا فما قيمةُ شخص يتقدَّم للميدان أعزلَ لا يدري شيئًا من هذا الفنِّ (فن الحروب)؟!

إنَّ إهمالَ مثل هذا الشأن الخطير من جانب الشباب بحُجَّة أنَّ الجيشَ يستطيع القيامَ به، ومتمرِّن على استعمال الأسلحة المتنوِّعة خطأٌ جَلِي.

إنَّ واجبَ الجهاد ليس محصورًا في الجيش، أو أفراد معيَّنين، والشعبُ جميعُه يعرف هذا تمامًا، وليس هيَّابًا، ولا وَجِلًا، وما من عادته الجُبن أو التقاعُس.

إنَّ هذه الأمنيَّة يتلهَّفُ لها الطَّلبة والمثقَّفون، ولا سيَّما

طلَّاب العلوم الدِّينية - ومَن أجدرُ منهم بهذا؟! - كما يتشوَّق لها عمومُ الناس.

إنِّي أتقدَّمُ بهذا الاقتراح للمسؤولين، راجيًا أن يصادِفَ قَبولًا من لُدنهم، وإسراعًا بالتنفيذ؛ (فالزمنُ زَمنُ السُّرعة)، وهم بلا شكٍّ أعرفُ من غيرهم بهذا الطلب وأهميَّته، على أنِّي أقترح أيضًا أن يكونَ التَّدريب اختياريًّا، وأن يُراعى فيه أوقاتُ الفراغ؛ حتى لا ينصرفَ الطَّلبةُ له في كلِّ أوقاتهم، فيُهملوا دروسَهم، وإنَّا نريد الجمعَ بين المصلحتَين، وفي العُطلة القريبة مجالٌ واسع؛ نظرًا للفراغ، وطول المدَّة، والشوق من الطَّلبة، والرَّغبة من المسؤولين في المصلحة العامَّة.

حقَّق الله الآمال.

مشكلة لم تُحل[١]

مشكلةٌ مزمنة قد استعصت على العلاج، وتعقَّدت حتى كادَ اليأسُ يغلِب الأمل، وكادَ الناس في هذه المملكة المترامية الأطراف يركَنون لليأس، ويتجرَّعون مرارة الألم، ويسكتون على مَضَض، بعد أن بُحَّت الأصوات، وذهبت الصيحات أَدراج الرِّياح، كنفخةٍ في رماد، أو صيحةٍ في واد، والحقُّ أنَّ الصِّحافةَ قامت في ذلك بدورٍ رائع، يُسجَّل لها بالفخر والتقدير، ولكنَّ تلك الأصوات قد ضعُفت، وأصابها الكَلال والإعياء؛ إذ لم تجد تجاوُبًا، وإنَّما لقيَت الإهمال والسَّلب.

ومعذرة في هذه المقدِّمة التي هي قليلة بالنسبة لموضوع شائك وخطير، في آنٍ واحد، وما الموضوع يا تُرى؟ إنَّه مشكلة الزواج في هذه البلاد الواسعة، المشكلة التي أصبحت تهدِّدُ سكَّان المملكة في كلِّ نواحيها بالفَناءِ والانقراض، وإذا قلت هذا فليس ما أقوله ضربًا من

(١) - نُشرت في "صحيفة اليمامة" العدد (٢٣٤)، في ١٤/ ٢/ ١٣٨٠هـ.

الخيال أو انسياقًا وراء عاطفة جامحة، وإنَّما هو نتيجةٌ حتميَّة لواقع مرير، وإنِّي أعني ما أقول، وذلك الرأي ليس ارتجالًا، وإنَّما بعد تأمُّل وتفكير ودراسةٍ لأوضاع محزِنة.

لقد تعقَّدت المشكلةُ حتى انصرفَ العددُ الأكبر من الشباب عن الزواج مُكرَهين، ووقفوا أمامَ بابه حائرين، يريدون الولوج، ولكن تقفُ الأسوار والسُّدود حائلة، فيرجعون مُتحسِّرين، ولسان حالهم يقول:

أَهُمُّ بفِعلِ الحَزمِ لو أستَطيعُهُ
وقد حِيلَ بينَ العِيرِ والنَّزَوانِ

ويقول مع الآخر:

أَلقاهُ في اليَمِّ مَكتُوفًا وقالَ لهُ
إيَّاكَ إيَّاكَ أن تَبتَلَّ بالماءِ

يهمُّ بالإقدام فيذكر الأرقام الخياليَّة، والعوائد السَّخيفة فيفضِّل الإحجام؛ لأنَّه يرى دونَ بُغيته خَرْطَ القَتاد.

لقد تضخَّمت المشكلة، وازدادت تعقيدًا يومًا بعد يوم، ومع ذلك فإنَّنا لا نرى أملًا في معالجتها معالجةً حكيمةً واهتمامًا بشأنها ممَّن لهم القدرة على التوجيه،

وبيدهم سلطة التنفيذ، ولهم سلطان القوَّة ونفوذ كبير يمكِّنهم من العلاج الحاسم، وأعني بهم العلماء في هذه المملكة مجتمعين، وأخصُّ منهم ذوي السُّلطة والمسؤولين فيهم، فإنَّ أمانةً كبرى مَنوطة بهم، وإنَّهم متحمِّلون مسؤوليَّة أجيال بكاملها، فماذا فعلوا بإزائها لمعالجة الدَّاء، واستئصال جُرثومته؟

إنَّنا نقولها صريحةً وكلُّنا أسف: إنَّ كثيرين ممَّن تُوَجَّه لهم الكلمات في هذا الشأن على أمل أن يستجيبوا لنداء الأمَّة، وأن يُعنَوا بأمرٍ في غايةِ الخطورة - لم تجِد تلك الكلمات منهم آذانًا مُصغِية، فكأنَّها في وادٍ وهم في وادٍ آخر، وإنَّنا لنكتب هذه الكلمة مذكِّرين، رائدُنا السَّعي لما فيه الخير والمصلحة العامَّة، وإنَّ مشكلةَ الزواج هنا قد تشعَّبت، وتعدَّدت مناحيها، وأبرز مشاكلها:

١- مشكلةُ غَلاء المهور.

٢- ومشكلةُ التقاليد المشوَّهة، التي تمنع الزوج من رؤية زوجته إذا ما خطبَها.

وغيرهما من المشاكل، ومن واجب المصلحين الغيورين أن يهبُّوا جاهدين لحلِّها، وأن يسعَوا لإزالة

أخطارها، فمشكلةُ غلاء المهور وما يتبعها من عاداتٍ سخيفةٍ تزداد مع الأيام حِدَّةً وضَراوةً؛ بحيث صارَ الزواجُ عند الفقير حلمًا من الأحلام، وما أكثر الفقراء! بل هم الذين يؤلِّفون السَّواد الأعظم في هذه البلاد، وأين للفقير آلاف الرِّيالات يدفعها مهرًا؟! وآلاف أُخَر في أشياءَ سخيفة، تبَعًا لعادات خرقاء، وتباهيًا أحمق!

وإذا علمنا أنَّ كثيرين لا يجدون الحدَّ الأدنى من القُوت والكِساء والسكَن، ودخلُهم الضئيل لا يفي بسدِّ حاجتهم - علمنا فداحة الخَطب، وما يتعرَّض له هؤلاء البائسون من بؤس وألم، وعجزٍ عن تحمُّل أعباء الزواج وتكاليفه الباهظة.

ولو أُجرِيَ إحصاءٌ لعدد العزَّاب والعوانس الذين تغَصُّ بهم البلاد، لظهرت النتيجة مروِّعة، وحسبُ المرء أن يبصرَ من حوله ليدرك ذلك جيِّدًا، وليتصوَّر الحالة التي يعيشها أمثال هؤلاء الذين باءت أمانيهم الجميلة بالفشل بعد أن ارتطمَت بصخرة الواقع، تمنَّوا أن ينعموا بحياة زوجيَّة هادئة، بدلًا من حياة العزوبة القَلِقَة، وأن يبنوا عشًّا يأوون إليه، وأن يُنجبوا ذرِّية تخلُفهم، وبذلك يشاركون في

بناء الأمَّة، ويشعرون أنَّهم عضوٌ مهمٌّ في المجتمع، له قيمته وأثره، وأنَّهم ليسوا مهملين أو أناسًا لا فائدة منهم، وأنَّ هناك مَن يُعنى بهم ويُسهم في حلِّ مشاكلهم، ويستريحوا من عَناء العزوبة وأوصابها.

أمَّا أن يُترَكوا وشأنهم المحزن، تقف دونَهم الحواجز والسُّدود ليبقَوا عُزَّابًا إلى الأبد، أو إلى انتظار الفرج، أو مستسلمين لليأس القاتل، فهذا هو الخطر الدَّاهم.

ثم الفتاة المسكينة ما ذنبها أن تبقى عانسًا؟! وماذا جنَت لكي تظلَّ حبيسةً تعاني أحزانًا دفينة؟! وتتقطع نفسها حسراتٍ وهي ترى زهرة عمرها تذبل، وشبابها النَّضِرَ يصوِّح، وضحكاتها الرنَّانة المَرِحة تتحوَّل إلى بكاء وحُرقة، وتتقلَّب بسمَتُها الجميلة إلى دمعة حارَّة، ومرحُها ينعكس إلى نار ملتهبة في صدر المسكينة، وهي تكتم أحزانها وتتجرَّع مرارة الحرمان بحكم ظروفها وحيائها.

لقد وقفَ الشباب حائرًا لا يطيق التقدُّم، وبقيَت الفتيات محرومات، عُزَّاب وعوانس، غَلَّتهم قيودٌ ثقيلةٌ من التقاليد البالية، وأَسَرتهم عاداتٌ مجنونة؛ فكلٌّ منهم يطوي بين الضلوع مأساته، ويرسلها تأوُّهات حارَّة، وزفيرًا

محرقًا، وأنَّات مكبوتة.

وآباء الفتيات وأولياء أمورهن سادرون في غيِّهم، سائرون في طريقهم المُعوَجِّ، وهم في ذلك بين اثنين: رجل ضعيف الشخصيَّة، هزيل التفكير، منقادٍ للعادات البالية؛ في التغالي بالمهور، والمباهاة الجوفاء، والبذَخ المقيت.

ورجل جَشِعٌ، قد أعماه الطَّمع، وأضلَّه حبُّ المادة؛ فهو لا يرى في فتاته أكثرَ من أنَّها سلعة في المزاد العلني، يستحقُّها مَن يدفع الثمن الأكثر.

نعم؛ هذه الحقيقة خالية من الرتوش والتمويهات، وإنَّ تجاهُلَها لا يفيد أحدًا ولا يحلُّ المشكلة، وإنَّما يزيدها ارتباكًا وتعقيدًا، ولنتصوَّر ما يمكن أن ينتجَ عن هذا الحرمان من مفاسدَ وأضرار، وما قد يؤدِّي إليه إذا استمرَّ بشكله الراهن من جرائم وانحلال، وإن كانت هذه البلاد - بحمد الله - لم تظهر فيها تلك المفاسد بالصورة المحتملة؛ نتيجة الوازع الدِّيني والتأديبي - فإنَّ هذا لا يعني استحالة انفجار البركان المدمِّر في وقتٍ ما، وانفلات الزِّمام بحيثُ يصعب تدارك ما فَرَط، فمن

الحكمة والقيام بالواجب أن يقومَ العلماء والمصلحون بجهود جبَّارة لحلِّ هذه المشكلة الخطيرة قبلَ فوات الأوان.

وأمَّا المشكلة الأخرى فهي عدم رؤية الزوج لزوجته إبَّان الخِطبة، وهذه المسألة لها طرفان ووسَط؛ من الناس مَن يتجاوز الحدَّ فيها؛ فيبيح للخطيب الخَلوة بمخطوبته، وأن يسرحَ ويمرحَ معها بلا قيود أو حدود، وهذا واقع أكثر بُلدان العالم، وهذه إباحيَّةٌ مكشوفة، وفيها مفاسدُ واضحة للعِيان، وعلى العكس من ذلك مَن يفرِّط ويتشدَّد؛ فيمنع الخاطب من رؤية خطيبته، ويتعصَّب في ذلك، ولو طلبَ الخاطب من كثير من الناس هنا السَّماح له برؤية مخطوبته، لعَدُّوا ذلك إهانةً لهم، وربَّما رمَوه بالخَبَل والتغفيل.

والحلُّ الصحيح هو ما جاءَ به الإسلام من سُنِّية رؤية الخاطب لمخطوبته؛ كما قالَ الرسول ﷺ لرجلٍ أرادَ أن يتزوَّجَ امرأة: «هل نظرتَ إليها؟»، قال: لا، قال: «اذهَب فانظُر إليها»، وقد قيَّدَه الشارع بأن يكونَ بلا خَلوة؛ كما جاء في حديثٍ آخر: «ما خلا رجلٌ بامرأة إلَّا كان

الشيطانُ ثالثَهما».

فبهذا عالجَ الإسلامُ هذه المسألة فلا إفراطَ ولا تفريط، وبسبب المتاعب في الزواج من هنا؛ فقد اتَّجَه عددٌ كبيرٌ إلى الزواج من الخارج، وهذا ممَّا يزيد المشكلة تعقيدًا، والذي يفعل ذلك كالمستجير من الرَّمضاءِ بالنار؛ فإنَّ اختلافَ العادات والبيئات والطبائع أسبابٌ منغِّصة، لا تتَّفق غالبًا وما يؤمِّل الإنسانُ من حصول الاستقرار والسَّعادة، ومن ثَمَّ لا غرابةَ أن يكون نتيجةَ معظمها الفشل، وهو بالتالي ممَّا يضاعِف عدد العوانس في هذه البلاد.

وبعبارةٍ أوضح فإنَّ مقابلَ كلِّ رجل يتزوَّج من الخارج تبقى عانس هنا، وهذه مأساة حقًّا.

وبعدُ؛ فإنَّ الزواجَ سنَّة طبيعيَّة فطريَّة، يقتضيها العقلُ والفِطرة، ويدعو لها الشَّرع، وهو ضرورةٌ اجتماعيَّة، وطريق الرُّسل؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: ٣٨]، «يا معشرَ الشباب؛ مَن استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوَّج؛ فإنَّه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفَرْج» الحديث، «تزوَّجوا؛ فإنِّي مُكاثِر بكم الأُممَ يوم القيامة»،

وقال الرسول ﷺ: «ومَن رَغِبَ عن سنَّتي فليسَ مِنِّي».

ولقد حثَّ الإسلام على التزويج، ورغَّبَ فيه بطرقٍ مختلفة، كما أنَّ تخفيف الصَّداق مطلوبٌ للشارع؛ فقد رُوِيَ عن عائشةَ رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ أعظمَ النِّكاح بركةً أيسرُه مَؤونةً»؛ رواه أحمد.

وعن عامر بن ربيعة: أنَّ امرأةً من بني فَزارَةَ تزوَّجت على نَعلَين، فقال رسول الله ﷺ: «أرضيتِ من نفسكِ ومالكِ بنَعلَين؟»، قالت: نعم، فأجازه؛ رواه أحمد والترمذي وصحَّحه.

وعن أبي هريرة قال: كان صداقنا إذ كان فينا رسول الله ﷺ عشرَ أَواقٍ؛ رواه النَّسائي وأحمد، وزاد: وطبقَ بيدَيه، وذلك أربعمئة.

وعن أبي هريرة قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنِّي تزوَّجت امرأةً من الأنصار، فقال له النبيُّ ﷺ: «هل نظرتَ إليها؛ فإنَّ في عيونِ الأنصار شيئًا؟»، قال: قد نظرت إليها، قال: «على كم تزوَّجتها؟» قال: على أربع أَواقٍ، فقال له النبيُّ ﷺ: «على أربع أَواق؟! كأنَّما تَنحِتُون الفِضَّة من عُرْض هذا الجبل» الحديث.

وعن عُروةَ عن أم حَبيبةَ: أنَّ رسول الله ﷺ تزوَّجها وهي بأرض الحبشة، زوَّجها النَّجاشيُّ وأمهرَها أربعةَ آلاف، وجهَّزها من عنده، وبعثَ بها مع شُرَحْبِيل بن حَسَنةَ، ولم يبعث إليها رسول الله ﷺ بشيء، وكان مهرُ نسائه أربعمئة درهم؛ رواه أحمد والنَّسائي.

وعن سهل بن سعد: أنَّ النبيَّ ﷺ جاءته امرأةٌ فقالت: يا رسولَ الله، إنِّي قد وهبتُ نفسي لك، فقامت قيامًا طويلًا، فقامَ رجلٌ فقال: يا رسولَ الله زوِّجنِيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك من شيءٍ تُصدِقها إيَّاه؟»، فقال: ما عندي إلَّا إزاري هذا، فقال النبيُّ ﷺ: «إن أعطيتَها إزاركَ جلستَ لا إزارَ لك! فالتمِس شيئًا»، فقال: ما أجدُ شيئًا، فقال: «التمِس ولو خاتمًا من حديد»، فالتمسَ فلم يجد شيئًا، فقال له النبيُّ ﷺ: «هل معكَ من القرآن شيء؟»، قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا، لسورٍ سمَّاها، فقال له النبيُّ ﷺ: «قد زوجتُكها بما معك من القرآن»؛ متَّفق عليه.

وكان النبيُّ ﷺ يُصدِق نساءه خمسمئة درهم، وأُصدِقَت بناته على أربعمئة درهم، وقال عمر رضي الله عنه: ألا

لا تُغالوا في صدقات النِّساء، فإنَّها لو كانت مَكرُمةً في الدُّنيا، أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها رسول الله ﷺ، وما أصدَقَ رسولُ الله ﷺ امرأةً من نسائه، ولا أُصدِقَت امرأةٌ من بناته أكثر من اثنتي عشرة أُوقِيَّة، وإنَّ الرَّجلَ لَيُغلي بصَدُقَة امرأته حتى يكونَ لها عَداوة في قلبه، وحتى يقولَ كُلِّفتُ لكم عَلَقَ القِرْبَة؛ أخرجه النَّسَائي.

وعن أبي سَلَمَة قال: سألت عائشة عن صَداقِ النبيِّ ﷺ فقالت: اثني عشرة أُوقِيَّة ونَشٌّ، فقلت: وما النَّشُّ؟ قال: نصف أُوقيَّة؛ رواه مسلم.

والأوقيَّة: أربعون درهمًا.

وربَّ قائل يقول: ولكن ما هو الحلُّ المعقول لهذه المشكلة، بل لهذه المعضلة؟

فأقول: إنَّ الأمرَ ليس من السهولة بحيث يمكن حلُّه بكلمة عابرة، أو رأيٍ شخصيٍّ، ومع هذا فإنِّي أرى أن يجتمعَ العلماء في هذه البلاد، ويتشاوَروا في الأمر ويجتهدوا؛ عسى أن يُوفَّقوا لحلٍّ صحيح، وأرى أن يُبدأ بتنفيذ فكرة أوَّليَّة؛ وهي أن يُختارَ عددٌ من العلماء، وذوي المَقدرة الخطابيَّة والعلميَّة لإلقاء خُطب ومحاضرات في

المساجد والمجتمعات حولَ هذه المشكلة، وكذلك يكتبون في الصُّحف، ويُلقون كلماتٍ وأحاديثَ في الإذاعة، ويحملون فيها حملةً شَعْواء على التغالي في المهور، والعادات البالية التي يَنساق الناسُ وراءها، وبيان ما في ذلك من وَخيم العاقبة، وأنَّه يجب الرجوع إلى طريق الكتابِ والسُّنَّة وفعل السَّلف الصَّالح، وما أمرَ به في ذلك.

وهذا الاقتراحُ يمكن تنفيذه بسهولة، وقد يكون له الأثرُ الحسن في النفوس، أمَّا إذا لم تنجَح هذه فليُصَر إلى ما لا بُدَّ منه، وهو تحديد المهور درءًا للمفاسد، وعملًا بالطرق الشرعيَّة المعروفة من دفع كبرى المفسدتين مع ارتكاب أخفِّهما، وقاعدة تفويت صُغرى المصلحتين لتحصيل كبراهما، والعمل بالاستحسان، والمصالح المُرسَلة، وغيرها من القواعد المعروفة.

وهذا رأيٌ أقدِّمه راجيًا أن يجدَ تجاوبًا وعملًا ممَّن وُجِّه إليهم، وما توفيقنا إلَّا بالله، وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

إسرافٌ وتقتير[1]

المظاهرُ الجوفاء، والسَّراب الخادع، والتملُّق المصطنَع، ما أكثرَ ما تُفسد! وما أقلَّ ما تنفع! وكم من بذَخٍ وإسرافٍ بجانب إملاقٍ وحسرة! الاعتدالُ ما أجملَه! والرَّزانَةُ ما أفضلَها! والحبُّ والصَّفاء ليسا في حاجةٍ إلى الكُلفة، والمخلِص لن يرضى أن يكونَ سببًا في متاعبَ لا جدوى من ورائها، والتقليد الأعمى ما أشدَّ خطرَه! وأكثرَ فتكه!

ها هي بلادُنا في مفتَرَق الطُّرق، في حالةٍ بين المدِّ والجَزرِ من رواسب تحطُّ القُوى، وتخدِّر الأعصاب، وتنشأ على ذلَّة النفوس وتعويدها (النِّفاق)، في حاجةٍ إلى مكافحة الفقر وانتشال الفقراء الذين تعجُّ بهم البلاد من كلِّ جوانبها، في حاجةٍ إلى معالجةِ المريض البائس، إلى تعليم الجاهل وتنويره في قلب البلاد الغنيَّة بموادِّها الأوَّلية، الفقيرة في صناعتها في زراعتها في كلِّ شؤونها،

(١) - نُشرت في "جريدة البلاد" في ٢٥/ ٧/ ١٣٧٨هـ لمناسبة حفلات وولائم.

ولكن أين مَن يعمل؟! أين مَن يُخرِج الرأي عملًا والخيالَ حقيقة؟! بدلًا من الإنفاق فيما لا يعود بفائدة؛ فإنَّه لا بُدَّ في جانب البَذَخ حقٌّ مُضاع، وعند كلِّ إسراف تقتير.

هنا من أخذَ الأموال من غيرِ طريقها المشروع، فهو يتخوَّض في مال الله بغير حقٍّ، وهناك مَن يكنِز الثروات فلا يُزكِّي، ولا يؤدِّي حقَّ الله وحقَّ الفقير منها، وهناك مَن يعيش عالَةً على حساب المُحوَجين والمضطرِّين، ولكنَّه يبرهن عن سخاءٍ يُخجِل حاتِمًا، وكرمٍ نادر عندما تحين مناسبة (فخفخة)، وتسنَح فرصةٌ للتَّبجُّحِ والتَّهريج، أو انتهازيَّة ممقوتة، إنَّها أشلاءٌ تتطاير هنا وهناك لا لتنفعَ مضطرًّا، ولا لترفعَ مستوى فقير، ولكن ليُقال: كُرَماء!

فمعاذًا بكَ اللهمَّ من كلِّ بلاءٍ ورزيَّة!

بذَخٌ مَقيت[1]

هذا الطابعُ الذي يكاد يكون مميَّزًا لمجتمعنا، وهو طابع البذَخ والتنافس في السَّبق إليه حتى أصبحَ داءً مُستحكِمًا، وخطرًا يهدِّدُ بتَقويض المجتمع، وهدم أركانه؛ لأنَّه يدخل في مجالات كثيرة من محبَّة المظاهر الخادعة، والانسياق وراء أوهام كاذبة؛ تقليدًا لقويٍّ، ومباهاةً لنِدٍّ، وتخبُّطًا في فوضى، وإرهاقًا لا حدَّ له بعد ذلك، وما يجرُّه من نَكَبات وبلايا تُثقِل الكاهل بأعباءٍ جِسام، دونَ أن تكونَ هناك نتيجة سليمة لهذا التهوُّر.

وليتنا نتباهى ونتسابَق فيما يتسابق فيه بعض ذوي العقول الحصيفة، الذين يتبارَون في إقامة المشاريع النافعة، والمصالح المشتركة المثمرة إذًا لكان مستساغًا ومستحبًّا، ولكن تسابقٌ فيما لا يجدي، وتقاعسٌ عن النافع المفيد.

إنَّك تجد في بعض البُلدان أناسًا يُعنَون بإقامة المستشفيات والمدارس والمصانع وإنشاء الملاجئ،

(١) نُشرت بـ"صحيفة القصيم" العدد (٥)، في ٢٩/ ٦/ ١٣٧٩هـ.

والتَّعاون الحميد؛ لرفع مستوى أمَّتهم، والنهوض ببلادهم، ولكنَّ أثرياءنا بدلَ أن يُعنَوا بهذه المَحامِد، ويجلُّوا في هذه المكارم - تراهم يتهافتون على مظاهرَ سخيفة، ويتفاخَرون في البذَح والإسراف حيث لا نفعَ فيها.

وتسأل عن هذه العادات البالية فيُقال: إنَّها شِيَمٌ عربيَّة، وما هي إلَّا رواسب مَقيتة، وتُلحُّ في السؤال فترى آخَر يقول: إنَّها العادات والتقاليد، فهل نتركها تقهرنا؟ وهل نحن من الضعف بحيث نستسلم ونُغمض أعيننا؟ وننقاد لعادات رعناء، نذوق من وَيلاتها المِحَن، ونتجرَّع من وراء الانصياع لها كؤوسًا مريرةَ المَذاق، إنَّنا يجب ألَّا نقفَ مَكتوفي الأيدي أمام هذه المهازِل تتحكَّم فينا، ونسير معها أينما سارت، قائلين مع الشاعر:

وهَـل أنـا إلَّا مِـن غَـزِيَّـةَ إن غَـوَت
غَـوَيـتُ وإن تَـرشُـدْ غَـزِيَّـةُ أَرشُـدِ

بل يجب أن يقومَ العلماء والمصلحون بحمَلات شَعواء لتحطيم هذه الرواسب التي تراكمت نتيجة جهلٍ وظلام دامس، رزحنا تحت وطأته سنين عجافًا، وأن نحاربَ عادة البذَخ كما نحارب عدوًّا مهاجمًا، هذا إذا

أردنا لمجتمعنا الرُّقيَّ والتقدُّم، وإلَّا فسيبقى مجتمعنا مشلول الحركة، ويتخبَّط في فوضى لا نهايةَ لها، ويتفاقم الشرُّ وتستحكم حلَقاته، وعند ذاك يستعصي العلاجُ على الطَّبيب.

إنَّني أدعو العلماء والمثقَّفين عمومًا ليقوموا بواجبهم تجاه دينهم وأمَّتهم، وينقذوا بلادَهم من رواسب هذه العادات البغيضة، التي قد اكتوى بنارها الجميع، ولتزولَ هذه الوصمة التي أصبحت رمزًا للسُّخرية منَّا، وإن غالَط البعض فزعمَ أنَّها مَحمَدة وحَسنَة، فهو واهم أو مُسَفسِط، وبالتالي حتى لا يبقى في أذهان بعض مَن لا يعرف حقيقة الإسلام أنَّ الإسلامَ يأمر بهذه العادات، ولا يرعى المصالح ويدرأ المفاسد، والإسلامُ سبَّاقٌ لكلِّ مصلحة نافعة، ودارئٌ لكلِّ مفسدة.

وهكذا يمضي العيد[1]

منذ أيام مرَّ عيدُ الأضحى المبارك وانقضى وأيَّام التَّشريق بسلام، أيَّام لها خطرها وقيمتها، أيَّام تحفِل بالتَّهاني والتحيَّات، وتزخَر بإراقة دماء الأضاحي تقرُّبًا إلى الله العليِّ الأعلى، ولأيَّام العيد لذَّة ونشوة، وفيها تحريكٌ للمشاعر، وإيقاظ من سُبات الانعزاليَّة، والاطِّلاع على شؤون الناس وشجونهم، ولكن هل يكفي المرءُ أن يفرحَ ويطرَب، ويُترِفَ نفسَه ويسخو عليها ويبذَخ؟

لماذا؟ لأنَّه يوم العيد!

وهل العيد أن تطيرَ برقيَّات التهاني، وتكثر الزيارات والتَّحايا وكفى؟

لا، إنَّ العيدَ موسم كريم، ومناسبة عظيمة، ولعيد الأضحى مزايا جليلة؛ فقد شَرَع الله فيه الأضاحيَ سنَّة أبينا إبراهيم عليه السلام، وحسنًا أن يكونَ العيد وسيلةً للتَّعارف، وسلَّمًا للتآلف والتصافي، ونزعةً رُوحانيَّة تسمو بها النفس

(١) نُشرت في "اليمامة" العدد (٨٨)، في ١/ ١٢/ ١٣٧٦هـ.

من أوضار المادَّة، والتكالب على المطامع الشَّخصيَّة.

وحسنٌ جدًّا أن نتَّخذَ من العيد عِبرة، تُرى كم هي الأعياد التي يُقفر بعضها إثر بعض من آلاف السِّنين؟ وأين مَن هم بالأمس القريب والعيد الأقرب كانوا ملءَ السَّمع والبصر؟

حقًّا ما أجدرَ المرء أن يجعلَ العيدَ مناسبة حميدةً لعمل الخير، وبذل المعروف، وإسداء النُّصح، والرِّفق في المعاملة، ومكارم الأخلاق، والإعراض عن السُّفهاء في لغوهم، ومعونة المنكوبين، ومساعدة البائسين، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف!

وما أَقْمَنَ العيد بأن يذكِّر المرء أن يسعى جهدَه لما فيه النَّفع الشامل، وإسعاد المجموع، وأن يضحِّيَ تضحياتٍ غالية في سبيل الخير والحقِّ، بلا مَنٍّ ولا أذًى ولا استكثار!

ما أحرى العيد أن يلفت انتباهنا لأعيادٍ خلَت؛ لنحاسب أنفسنا، ولننظر مليًّا ماذا كنَّا عليه بالأمس، وما نحن فيه اليوم، وماذا أنجزنا من أعمال نافعة؟ وهل حقَّقنا ما كنَّا نريد تحقيقه من كلِّ عمل وقول رشيد؟!

وإنَّه لخَطَلٌ - وأيُّ خَطَل! - أن يجعلَ الإنسان من العيد إشباعًا لأنانيَّته، ومناسبةً للبذخ والإسراف، وجاره يتضوَّر جوعًا، وأن يُبذِّرَ المالَ في هَوَس وأبناء أمَّته وبلاده يُقاسون وَيلات الحرمان، ومصائب الفقر المُدقِع.

وليس العيدُ أن يَنعَمَ المرءُ على حساب الآخرين، وليس العيدُ أن يغرقَ الشَّخص في لهوه وعبثه، فيُقال: إنَّه سخيٌّ كريم، وهو خائنٌ لأمانته، يسرقُ أموال الغافلين والقُصَّار، وليس العيدُ أن ينظرَ المرءُ لنفسه بالتَّجِلَّة والاحترام، وينظرَ لغيره بالاحتقار والهوان، كلا، ولا هو أن يستغلَّ الغنيُّ الفقير ليُنمِّيَ ثروة من ربًا وسُحت ليُقال: إنَّه عظيم، وأن يتملَّقَ القائل ويخادع ليحوزَ شيئًا من مال أو بعضًا من جاه أو حَفنة من نفوذ.

ولا عرفَ العيدَ وقدرَه من كان شِرِّيرًا سليطًا، همُّهُ الإيذاء ودَيدَنه الاستطالة على عباد الله، سريعٌ إلى الشرِّ بطيءٌ عن الخير، يبخَل ويأمر بالبخل، ويجبُن ويحثُّ على الجبن، ويكون حجر عَثرةٍ في طريق العاملين المخلصين.

ولكن مَن آسى الجراح، ومسحَ دموعَ البائسين، وأقبلَ على عمل الخير لا يَألو جَهدًا، فذلك الذي قدَرَ العيد قدرَه.

فهنيئًا لمَن فازَ برضى ربِّه، وجدَّ في الإصلاح، وأدَّى الأمانة، ووقَّر الكبير، ورَحِمَ الصغير، وصدَعَ بالحقِّ غير هيَّاب ولا وَجِل، وأيقظَه العيد - وكم في العيد من عِبَر! - فشمَّر عن ساعده للمكارم، عاملًا لإسعاد المجموع.

وكلَّ عامٍ والمسلمون بخير إن شاء الله.

تنظيم الزَّكَوات[1]

لا أريدُ الحديثَ في هذه الكلمة القصيرة عن شرعيَّة الزَّكاة، وأنَّها ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة، وأنَّ تركها كفر؛ على ما فصَّله العلماء في كتبهم، إنَّما أريدُ أن أكتبَ في موضوع تنظيم الزكاة، والوقت مناسبٌ - فيما أحسب - فإنَّ بعضَ الأغنياء يتحرَّون بزكاتهم شهر رمضان المبارك، رغبةً في مضاعفة الحسنات، وطلبًا للأجر والزُّلفى من الله.

ولهذا السبب يكثر المتسوِّلون في هذه الشهر، وتمتلئ الأسواقُ بهم، كثيرٌ منهم يُضايقون المارَّة، ويتجمهرون عند المتصدِّق بثيابهم الرثَّة، وأسمالهم البالية في منظرٍ محزِن، وهو أيضًا يُعطي الأجانب فكرةً مُشوَّهةً عن بلادنا، وربَّما اتَّخذ بعضهم منها مادَّةً دسمة للدِّعايات المغرِضة ضدَّ بلادنا في الخارج، وهؤلاءِ المسلمون هم - ولا شكَّ - جديرون بالعطف والشَّفقة والمواساة، ولكنَّ

(١) نُشرت في "صحيفة اليمامة" العدد (١٧٠)، في ٢٦/ ١٠/ ١٣٧٨هـ.

هذه الحالة التي نراهم عليها لا يصحُّ أن تبقى، وإذا كانت مستساغةً في وقت انصرم فإنَّها لا تَليقُ في هذه الأيَّام.

ولكن ما هو الحلُّ يا تُرى؟ فالمسألةُ لم تعُد عَرَضَ داء، وإنَّما أصبحت مشكلةً يجب حلُّها.

وإنِّي أقدِّمُ هذا الرأي لمَن يهمُّهم، راجيًا أن يجدَ قَبولًا، أو بحثًا على الأقلِّ، ثم علاجًا ناجعًا:

أرى أن تُشكَّلَ هيئة يُطلق عليها (هيئة الزكاة)، ويُختارَ لها بعض الفضلاء الأخيار في كلِّ مدينة بإشراف قاضي البلد، ويُعهدَ إليهم بقبض الزكاة من الأغنياء أو قسطٍ من زكاتهم - كالنِّصف مثلًا - وتقوم الهيئةُ المُشار إليها بدورها بدفع الزكاة المُتحصِّلة لديها للفقراء، بعد القيام بعمليَّة إحصاء للمستحقِّين، والمهمُّ ألَّا تُصرَف الزكاة لغير مَن حُصِرت فيهم كما في آية (التوبة).

إنَّ هذه الطريقة - أو ما يقرُب منها - لو نُفِّذت لأراحت هؤلاء البائسين من كثيرٍ ممَّا يتعرَّضون له من إراقة ماء وجوههم، وامتهان كرامتهم، ولشَعروا بقوَّة الصِّلة التي تربطهم بإخوانهم الذين آتاهم الله بَسْطَةً في المال، وهي كذلك عونٌ للغنيِّ في أداء ما وجبَ عليه من حقٍّ واجبٍ

في ماله، وإذا أمرَ ذو السُّلطان الأغنياءَ بتسليم زكاتهم، وكذلك إذا قامَ العلماء من جانبهم بإرشاد الناس، وذكر فوائد هذا التصرُّف الحسن - فإنَّ من السَّهل جدًّا تنفيذ الفكرة، وإخراجها إلى حيِّز العمل السَّريع.

وفَّقَ الله الجميع.

تمجيد الكسب في الإسلام[1]

لقد رغَّبَ القرآن، وحثَّ الرَّسول محمَّد ﷺ على العمل والكسب، وجاءت الآيات في ذلك واضحة، لا لَبسَ فيها ولا غموض، ترغِّبُ في العمل الشريف والمكاسب الطيِّبة، وجاء الحديثُ عن سيِّد الخلق ﷺ مرغِّبةً في العمل، داعيةً إليه بأنصع عبارة وأجلى بيان؛ فقد جاءَ في القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: ١٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢]، وجاءَ في الأحاديث: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»، «لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحتطبَ خيرٌ له من أن يسألَ الناس أعطَوه أو منعوه»، «لا يزال الرَّجلُ يسأل ويُلحُّ في المسألة حتى يأتيَ يوم القيامة وليس على وجهه مُزْعَةُ لحم»، «لا رهبانيَّةَ في الإسلام»، «أفضلُ

(١) نُشرت في "صحيفة اليمامة" العدد (٢٢٠)، في ٢٩/ ١٠/ ١٣٧٩هـ.

الكسبِ عملُ الرجل بيده، وكلُّ بيع مبرور».

على هذا النحو جاء الإسلام، مرغِّبًا في العمل حاضًّا عليه، وهكذا هم السَّلف الصَّالح صحابة النبيِّ ﷺ الذين كانوا يتعلَّمون ويعملون، وكانوا يكسِبون بتجارتهم وزراعتهم وتدرُّبهم على الحرب والفروسيَّة، ويصرفون الأموال في طرق الخير، ويكسِبونها من الطرق المشروعة.

فهذا أبو هريرة يخبر عن الصحابة أنَّهم يشتغلون بالصَّفق في الأسواق، وهذا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: «إنَّ السماءَ لا تمطرُ ذهبًا ولا فِضَّة!»، ويُعاقب الاتِّكاليِّين والمتبطِّلين.

ولقد عزَّ المسلمون وسادوا يومَ كانوا يفهمون الإسلام على حقيقته، ولكن بعد أن جَهِلوا صاروا في المؤخِّرة، بل هانوا وضعُفوا إلى حدٍّ مخجِل، وانقلبت المفاهيم إلى أضدادها في كثير من الأمور، ومن جملة ذلك إهمال التكسُّب، وركون المسلمين إلى الكسل، والعيش على فُتاتِ الموائد، أو انتظار الصَّدقات والهِبات، أو مدُّ اليد للتسوُّل، كما أنَّ هناك جماعاتٍ كثيرةً تحتقر بعض الأعمال، وترى فيها غضًّا من شأنهم، وامتهانًا لكرامتهم، مفضِّلين

التبطُّل، وتضييع واجباتهم في الإنفاق على مَن يعولون.

ومن المؤسف أن نرى البلادَ الأخرى التي لا تدين بالإسلام تحارب البَطالة وتَمقُتها، ويندُر أن يوجد فيها شحَّاذون نتيجةً لذلك، وهم ليس في ديانتهم من التعاليم ما يرغِّب في العمل والكسب - كما في الإسلام - ولا قريب منه.

ويبقى المسلمون متأخِّرين، على عكس تعاليم دينهم، وفي حالةٍ مُزرية حتى أصبحوا أُضحوكةً وغُثاء.

وإنَّ الذي يرى العددَ الجمَّ من المتسوِّلين في المملكة - وفيهم الكثيرون من القادرين على العمل، بل من ذوي القوَّة والنشاط العظيمَين - يعجب لبقاء هذه الوصمة، إنَّ العربَ يرون سُبَّةً - أيَّ سُبَّة - أن ينتظر الإنسان الصَّدقات، ويبقى عاطلًا مع اقتداره على الكسب، وقد هجا الحُطَيْئَة رجلًا بأقسى هجاء فقال:

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَلْ لِبُغيَتِها
واقعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسي

وقد عُوقِبَ الحُطَيئةُ بعد المحاكمة على هذا الهجاء.

إنَّ من المؤلم أن تبقى هذه الرواسب على مرأًى ومَسمَع من الجميع، لا تُعالَج المشكلة علاجًا حاسمًا، نريد أن نرى من العلماء قيامًا بواجبهم في ذلك؛ فيبيِّنوا ما في العمل الشريف من مصالح، وما في التسوُّل من مصائب، ويذكروا النُّصوصَ من القرآن والحديث وأقوال العلماء، ونريد من السُّلطات المسؤولة أن تنفِّذ، وأن تعالج بما لها من السُّلطان وقوَّة الحكم.

ونتمنَّى أن تزولَ وسْمَةُ التبطُّل من المجتمع نهائيًّا، إنَّنا أحقُّ مَن يقضي على هذه المساوئ، ومن المحزن أن نجدَ مَن يشجِّع هذه الأشياء بفعله، بل إنَّ هناك ما لا يكاد يصدِّقه المرء؛ الذين يتجوَّلون في الأسواق ويقرَعون الأبواب ليُناولوا الناس الصدقات، لا فرقَ بين غنيٍّ وفقير! هل هذا هو حكم الإسلام في الزكاة؟! وهل فكَّر الذين يعملون هذا العمل، ويشجِّعون عليه أنَّهم يغرِسون بذلك ذِلَّة في النفوس، وحقارةً في المتناول، وتحطيمًا لكرامة أمَّة يجب أن تقوى فيها روح العزَّة والطُّموح، بدل الذلِّ والخمول؟!

إنَّ سبلَ الصَّدَقات ومصارف الزكاة معلومٌ أمره في

الإسلام، وهو في آية صريحة في القرآن.

فما بالُ هؤلاءِ يسيرون على ذلك الخطِّ المنحرف؟ ولمصلحة مَن يا تُرى؟ وبأيِّ تعليم أخذوا؟ ليس في الإسلام اتِّكاليَّة ولا مجال فيه للمتعطِّلين الكُسالى، أو المتعطِّلين بالوراثة، في الإسلام عملٌ ومساواة، وتقديرٌ للكفاءات... إلخ.

وبعدُ، فقد أعجبتني هذه السطور من كلمةٍ للأستاذ عبد الله عبد الجبَّار، وهي منشورةٌ بـ"مجلَّة قريش" في العدد (٢١) في ٢٤ رمضان سنة ١٣٧٩هـ: «ومَن لا يعمل شاذٌّ بحكم الفِطرة... وهؤلاء المتعطِّلون بالوراثة لا مكانَ لهم في مجتمع القرن العشرين، هم كالطُّفيليَّات على دماء البشريَّة، ويمتصُّون ما لا حقَّ لهم في امتصاصه، فكيف إذا أراقوه فغدَوا بين كؤوس الخمر وأفخاذ النِّساء وموائد القِمار؟!».

ونقول: إنَّه لا مكانَ لهؤلاء في الإسلام قبلَ وبعدَ ذلك، ولا في مجتمع ينشُد الرُّقيَّ والمجد.

ولقد أحسنَ الرُّصافيُّ في قوله يصف المتبطِّلين بالوراثة:

يَتَجلَّى النَّعيمُ فيهِم فَتَبكي أَعيُنُ السَّعْيِ مِن نَعيمِ البَطالَهْ

إنَّه يجب ردُّ هؤلاء وأمثالهم إلى حَظيرة الصواب، أو إزالتهم من الطريق؛ لأنَّهم حجرُ عَثرةٍ في سبيل النهوض والتطوُّر، وهم قذًى في العيون، فهل من مجيب؟!

الصَّراحة المُجدِية[1]

الصَّراحة التي تهدف للصالح العام، وتُنِير الأذهان، وتدعو للرشاد، هي صراحةٌ بنَّاءة، ذات قيمة حيويَّة، لا، بل لا غنى عنها للمجتمع الذي يصبو للرِّفعة والكرامة، وأن يحيا حياةً حرَّةً عزيزة، الصَّراحة الهادفة توجِّه وتضيء الطريق، وتبتعدُ عن الأغراض الشَّخصيَّة، والنُّعَرات الضيِّقة، والضَّغينة المَقيتة.

وإذا كانت الصراحةُ ضروريَّة بالنِّسبة للمجتمعات، فهي كذلك أسس لا بُدَّ منها لاستقامة الأحوال، ووجود الصَّفاء والوِفاق بين الشُّعوب، وهي أكثر من ضرورة بالنِّسبة للحاكمين والمحكومين، وشرطٌ أكيدٌ لحصول الثِّقة بين المواطنين والمسؤولين، سواء في الحقل الداخليِّ أو

(١) نُشرت في "صحيفة البلاد" العدد (٥٠).

الخارجي، فقد مضى الزمنُ الذي كانت السِّياسة الحكيمة، والبراعة العظيمة، هي كتمان كلِّ شيء عن الرعيَّة؛ ومن ثَمَّ صارت السِّياسة القويَّة المكينة في هذا العصر هي التي يُصارح بها المسؤولون المواطنين، وترتكزُ على تأييدٍ شعبيٍّ، وبدون هذه الصَّراحة لا تكون تلك السِّياسة ذات موضوع.

وفي هذه الصَّراحة فوائدُ كثيرة؛ فهي تقوِّي مركز تلك الدَّولة خارجيًّا ويُحسب لرأيها حساب، وهي كذلك تعتمد على قوَّة هائلة تنبُع من منبع طبيعيٍّ له خطرُه وشأنُه، وكم شائعاتٌ مقلِقَة زالت، وسُحُبُ شكٍّ وارتياب تلاشَت، بفضل الصَّراحة بين الحاكم والمحكوم، وإذا كانت بعض الدُّول التي لا تدين بالإسلام قد أخذت بهذه الطرائق التي هي مستقاةٌ من الشَّرع الإسلاميِّ السَّمح؛ لأنَّها وجدت نفعَه واستساغت طعمه - فما أجدرَ المسلمين أن يطبِّقوها؛ لأنَّها من تعاليم دينهم، وفيها المصلحة لهم جميعًا!

وإنَّ الأمرَ في الإسلام واضح، فقد أُعطيَت أهميَّةٌ كبرى للبِطانة الخيِّرة، والاسترشاد برأيها، والابتعاد عن البِطانة الشرِّيرة؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن

دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عِمرَان: ١١٨].

ولقد كان الرسول ﷺ عندما يحدُث أمرٌ من الأمور يخطُب في الناس ويخبرهم بذلك، وقد يُنادي مُنادِيه: الصلاةُ جامعةٌ؛ حتى يحضروا لسماع خُطبة منه في ذلك الحادث الطارئ، وسياسة الخلفاء الراشدين سارت على هذا النحو البديع، وفي القرآن الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشّورى: ٣٨]، وقد خَطَبَ الفاروق رضي الله عنه يومًا فقال: إن رأيتُم فيَّ اعوجاجًا فقوِّموني، فقام إليه رجلٌ من سائر الناس فقال: لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بحدِّ سيوفنا، فردَّ عليه الخليفةُ العادل قائلًا: الحمد لله الذي جعلَ في رعيَّة عمر مَن يقوِّمه بحدِّ السَّيف.

وقسَّمَ مرَّة بُرُدًا يمانيَّة فنالَ كلُّ رجل من المسلمين بُرْدًا واحدًا، وتبرَّع له ابنه عبد الله ببُرْده، ولمَّا قامَ الخليفةُ يخطُب ويقول: أيُّها الناس، اسمعوا وأطيعوا، ردَّ عليه سلمان قائلًا: لا سَمْعَ لك علينا ولا طاعة، قال عمر: ولم؟! قال سلمان: من أين لك بهذا الثَّوب، وقد نالك

بُرْد واحد وأنت رجلٌ طُوَّال؟! قال: لا تعجَل، ونادى: يا عبدَ الله بن عمر، قال: لبَّيك يا أمير المؤمنين، قال: ناشدتُّك الله؛ البُرْد الذي ائتزرتُ به أهو بُرْدك؟ قال: اللهمَّ نعم، قال سلمان: الآن مُرْ نسمَعْ ونُطِع.

ولولا أنَّ الغرضَ إيراد مَثَلٍ فقط لنقلنا من القصص في ذلك الشيءَ الكثير، ورُبَّ قليلٍ يُغني عن كثير، والله الموفِّق.

بين الشُّيوعيَّة والرأسماليَّة[1]

يعيش العالمُ في هذه الظروف في صراع هائل، ونزاع مستمرٍّ يكتنِفه قَلَقٌ يتزايد يومًا بعد يوم من جرَّاء المبادئ المتناقضة والمقاصد المختلفة، وحبِّ السيطرة من أنصار كلِّ مذهب، والرَّغبة في التغلُّب على خَصمِه بكلِّ وسيلةٍ ممكنة، والاستهانة في ذلك السبيل بكلِّ شيء، مهما نتج عنه من أخطار قد يكون ضحيَّتها أبرياء، لا ناقةَ لهم فيها ولا جمل، بل قد تؤول إلى حربٍ ضروسٍ لا تُبقي ولا تذر.

وإزاء هذا الخِصام العنيف يقف عقلاء العالم ومفكِّروه ينظرون إلى تلك المبادئ بعين الفاحص الممعِن النظر؛ ليقدِّموا للبشريَّة خيرَ ما اشتملت عليه، وليُظهروا للملأ ما انطوَت عليه من مساوئَ وعيوب؛ ليجنِّبوهم وَيلات التَّمادي في تقديسها على ما فيها من أخطاء؛ لئلا يُصابَ العالم بكارثة، ويتمثَّل الصِّراع الشديد في هذا العصر في

(١) نُشرت في "جريدة البلاد" السعوديَّة في العدد (٥٩٣٢)، ٤/ ٨/ ١٣٧٦هـ، بعنوان (المبادئ الإسلاميَّة في الحياة).

مذهبين متناقضين أكبرَ تناقض، ولكلٍّ منهما أنصار يتحمَّسون له، ويستميتون في الدِّفاع عنه، وكلٌّ من المذهبين عدوٌّ لَدود للآخر؛ يتربَّص بصاحبه الدوائر، ويسعى حثيثًا لإبادته، وكلٌّ منهما يبذل جهودًا جبَّارة لنشر مذهبه، واجتذاب أنصارٍ جُدُد، أولئك هما: الشُّيوعيَّة، والرأسماليَّة، ولا يهمُّنا في هذه الكلمة المقتضَبة أن نذكرَ محاسن أو مساوئ كلٍّ من المذهبين، وإنَّما نودُّ أن نومئ إيماءةً قصيرةً إلى واجبنا كمسلمين تجاه المذهبَين.

إنَّ الإسلامَ دينٌ سماويٌّ مقدَّس، دينُ حقٍّ وجمال وطُهر، قد بلغَ الذِّروة كَمالًا، وسما إلى أَوجِ الخير والفضل والنَّزاهة، يدعو إلى توحيد الله وعبادته، ونشر العدل والسلام، ويحقِّق لمعتنقه العزَّة والرِّفعة والنَّصر المبين، ويوجِّه الإنسانيَّة جَمعاء لما فيه مجدها وسعادتها، وغير تلك من خِصال حميدة، يعجِز الوصف عن حَصرها، ويعِيُّ اللِّسان عن تبيانها.

الإسلامُ يعظِّمُ الدِّيانات السماويَّة، وينوِّه بشأن الأنبياء، ويعطي الرُّوح غذاءً نقيًّا، تسمو به عن عالم المادَّة المحجِّرة للقلوب والعقول، ويُتيح للجسم كذلك أن

يأخذَ نصيبه من مُتَع الحياة النافعة، و«إنَّ لنفسك عليك حقًّا».

إنَّ الإسلامَ يحترم الفرد؛ لأنَّه في نظره دِعامة المجتمع، كما أنَّ الإسلام يحرِّم الرِّبا تحريمًا قاطعًا، ويحمي الفقراء من استغلال الأغنياء البَشِع، يفرض الزكاة في الأموال تُؤخذ من الغنيِّ وتُرَدُّ على الفقير، ويحظُر الاحتكار، ويُغري بالإيثار، ومدِّ يد العَون للمحتاجين، عمل على أن تسود الرَّحمة والأُلفة والمحبَّة، ويزول الجَوْر والعدوان، ويدعو للمساواة الحقَّة؛ فالقويُّ والضعيف والغنيُّ والفقير سواسية؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، «لا فضلَ لعربيٍّ على عَجميٍّ إلَّا بالتقوى»، «لو سرقت فاطمةُ بنت محمَّد لقطعتُ يدها»؛ هكذا يقول صاحبُ الرِّسالة العُظمى ﷺ.

وكثير غيره ممَّا يطول استقصاؤه ممَّا يمتاز به الدِّين الإسلاميُّ الحنيف عن المبادئ والنظريَّات المختلفة.

إنَّ لدى المسلمين في دينهم ما يُغنيهم الغَناء كلَّه عن كلِّ مبدأ ومذهب لا يتَّفق مع مبادئ الإسلام القويمة، وفيه الكنوز الثمينة، وهو بعدُ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان؛ كما

اعترفَ بذلك أعداؤه، وكما هو معروف بدهيًّا لكلِّ مَن نظرَ فيه بإنصاف.

وواجب المسلمين جميعًا أن ينضَووا تحت لوائه، فلا يدَعوا مجالًا لتسرُّب المبادئ الهدَّامة إلى نفوسهم، وألَّا يجرُوا مع التيَّارات المتضارِبة، فإنَّ في الإسلام وتعاليمه السَّمحة بُغيةَ الناشد، وليس ما نشاهده من ضعف في المسلمين راجعًا إلى قصورٍ في الشريعة - كما يحلو للمبشِّرين وتلاميذهم ودُعاة الإلحاد والتحلُّل أن يتشدَّقوا به - حاشا الشريعةَ الإسلاميَّةَ من ذلك، ولكن نقولها والأسى يملأ نفوسنا: المصيبة مصيبة المسلمين أنفسهم، وفرقٌ بين المبدأ والمنتسِب له.

إنَّ تطبيقَ الإسلام تطبيقًا صحيحًا هو خيرُ علاجٍ للمشاكل المعقَّدة، وهو الطريقُ الأوحَد الذي يجب على كلِّ مسلم أن يتَّجهَ نحوه، وبالتعاون وحسن النيَّة تُدرَك غاياتٌ بعيدة المنال.

إنَّ تطبيقَ الشَّريعة الإسلاميَّة تطبيقًا لا يقتصر على بعض المستحبَّات والنوافل، وإنَّما يمتدُّ إلى الجذور والأسس تطبيقًا عمليًّا، ليس فقط بالدِّعايات الفارغة

والأقوال المبهرَجة التي هي لغرض الاستهلاك؛ فإنَّه سرعان ما ينكشف أمرها (ثوب الرِّياء يشِفُّ عمَّا تحته)، ولكن بتحكيم الشَّرع والعمل بتعاليمه.

وعلى المسلمين ألَّا ينصاعوا انصياعًا أعمى لدِعايات مغرِضة؛ فإنَّ دينهم القويم يأبى عليهم ذلك أشدَّ الإباء، وفي الوقت نفسه فإنَّ هذا أقربُ لسلامتهم وأمنهم، وإنَّ ممَّا يدعو للغِبْطَةِ أن نرى الكثيرين من زعماء المسلمين يعلنون استياءهم من المذهب الرأسماليِّ الجائر، والمذهب الشُّيوعيِّ الملحِد، كما أنَّ كثيرين منهم يعلنون حيادهم السياسيَّ بين الكُتَل المتطاحنة، وإن كان واجبهم أكبرَ من ذلك وأخطر.

وأخيرًا: نسأل الله أن يمدَّ الأمَّة الإسلاميَّة بعونه وتأييده، وأن يوفِّق قادتها وشعوبها لما فيه العزَّة والخير والازدهار، إنَّه قريبٌ مجيب.

محاولات دنيئة[1]

محاولاتٌ دنيئة تلك التي يقوم بها المبشِّرون بين الفلسطينيِّين، لقد جاءَ هؤلاء النَّصارى يدَّعون ظاهرًا أنَّهم يَخدُمون فكرةً نبيلة، هي خدمة المرضى، والعطف على المساكين والمنكوبين، ولكنَّها لم تكن لذلك الغرض الخلَّاب، وإنَّما جاءت لتحاولَ نشر النَّصرانيَّة بين المسلمين، وتشكيكهم في دينهم.

ولقد أحسنَ الأستاذ أحمد السباعيُّ إذ كتبَ في "مجلَّة قريش" العدد (١١) عن هذا الموضوع الخطير، وأطلعَ القرَّاءَ على ناحية هامَّة لها وَقعٌ مؤلمٌ في نَفس كلِّ مسلم.

وأنقُل إليك أيُّها القارئ بعضَ ما وردَ في كلمة الأستاذ النشيط، قال:

«كان صاحبي يُحدِّثني وهو يُشير إلى العيادة الطبيَّة التي أقاموها في مخيَّمات اللاجئين في الحروب، وتركوا ألوفَ المرضى يتجمهرون حولَها في صُورٍ تنطِق بآلامهم،

(١) نُشرت في "صحيفة القصيم" العدد (٩)، في ٢٧/ ٧/ ١٣٧٩هـ.

فقال: إنَّ هذا المستشفى تبشيريٌّ اسمه: مستشفى البركة، إنَّه يقدِّم خِدْماته للمرضى من اللاجئين، ويبُثُّ تعاليمه فيهم، فيفرض عليهم الصَّلاة في كنيسة المستشفى، ويعلِّمهم العبادةَ حسَبَ الطُّقوس النَّصرانيَّة، لقد أنشأ هذا المستشفى مبشِّرٌ إنكليزيٌّ قضى ١٥ سنة في السودان يعمل للتبشير، وتُنفق عليه اليومَ جمعيَّاتٌ خيريَّة.

أتدري؟ إنَّها جمعيَّات مسيحيَّة، منتشرة فروعها في أمريكا وبريطانيا أيكفيك هذا؟ إن كان لا يكفيك، فاعلم: أنَّ وكالةَ الغوث للأمم المتَّحدة تُساعد هذا التبشير، وتُعين عليه، فتتبرَّع بتموين المستشفى مجانًا، ألا ترى أنَّ في هذا الخطر المُحدِق ما يكفي للقضاء على عقائد إخوانٍ لنا نعتزُّ بإسلامهم، وأنَّ فيما يُقاسون من أنواع الحِرمان والجوع والأمراض ما يُعرِّضهم للإبادة والانقراض؟!».

هذا ما دبَّجَه يَراعُ الكاتب البليغ، وهو كما يقول صادقًا في وصفِ هذه الحالة المروِّعة عن فلسطين، أنَّها أصبحت مُعرَّضةً لأهوال ما تتعرَّض له أمَّةٌ منكوبة.

هذه الكلمة التي جاءت نذيرًا للمسلمين، ومحرِّكًا لهم لكي يعملوا شيئًا لإيقاف هذه الأعمال الشاذَّة، والتصرُّفات

الباغية، التي تنتهجها دول الاستعمار، وتَكِلُ أمرَ تنفيذها لمبشِّرين حاقدين على الإسلام والمسلمين، والذين لا يفتؤون يعملون ليلَ نهارَ لنشر النَّصرانيَّة في العالم، وخاصَّة بين المسلمين؛ إذ هم يَرَونَ في الإسلام أكبرَ عَقبة تقف في طريق انتشار النَّصرانيَّة؛ لما فيه من شمول ورحمة وكمال.

إنَّ هذه الكلمة التي جاءت على لسان الأستاذ السِّباعيِّ وصاحبه، وحملتها صحيفةُ أقدسِ بقعة - يجب ألَّا تذهب سُدًى، ولو أنَّ كلمةً مثل هذه قِيلَت في خطر يتهدَّدُ النصارى أقلَّ من هذا الخطر ونُشرَ في بلدٍ مسيحيٍّ - لقامت قيامةُ الحكومات والمبشِّرين والكتَّاب، ولبادرتِ الجمعيَّات برصد الأموال الطَّائلة للمساعدة.

أمَّا هنا في أقدس بقعةٍ في العالَم، في مَهبِط الوحي، وفي الحرمَين الشريفَين، وحيث شعَّ نورُ الإسلام وضَّاءً يحمل في طيَّاته الخيرَ والعدلَ والرحمة، وحيث قامَ سيِّدُ الخلق ﷺ صابرًا محتسبًا يؤدِّي رسالته السامية؛ ليستظلَّ بوارف ظلِّها ملايين عظيمة - أقول: في هذه المواطن يجب أن يكون لكلمةِ السِّباعي دَوِيٌّ وأثَر، وأن تكون لها نتيجةٌ فعَّالة، لا أن نقرأها كما نقرأ خبرًا عابرًا، أو قِصَّة

خياليَّة تُمحَى من الذَّاكرة بعدَ قراءتها مباشرة!

إنَّنا ننتظر أن يقومَ الجميعُ بما يستطيعون في هذا السَّبيل، وأن نرى بصفة خاصَّة أثرَ هذا الخبر لدى العلماء الذين هم في مركز القِيادة، والذَّوْدِ عن حِمى الإسلام، والغَيْرة على الإسلام والمسلمين.

وأحبُّ أن أُضيفَ بهذه المناسبة كلمةً وردت في كتاب "التَّبشير والاستعمار في البلاد العربيَّة" (ص١٨١)، وهي: أنَّ المبشِّرين كانوا جدَّ مقتنعين بأنَّ جمع اليهود في فلسطين يُسهِّل لهم مهمَّتهم في الوصول إلى المسلمين، من أجلِ ذلك أرادوا أن يفتحوا أبوابَ فلسطين على مصاريعها لهجرة اليهود، فليس من المستغرَب إذًا أن تجدَ سبعًا وعشرين جمعيَّة تبشيريَّة مختلفة الجنسيَّات كانت تعمل بلا مَللٍ في فلسطين.

كما وردَ في الكتاب نفسِه في فصل (التطبيب حِيلةٌ للتبشير): إنَّ المبشِّرين اتَّخذوا من الطِّبِّ ستارًا للتَّبشير بين المرضى، وقد كان أوَّلَ مَن غيَّرَ سُنَّة أبقراط الجميلة الأمريكيُّون؛ حينما بدؤوا يُنشِئون عيادةً طبيَّة في سيواس بتركيا عام ١٨٥٩م، وهكذا نظرَ الأمريكيُّون منذ ذلك الحين

إلى الطبِّ على أنَّه مُعينٌ على التَّنصير، ومنذ ذلك الحين اعتبر الأمريكيُّون الطبَّ مشروعًا مسيحيًّا، وعلى هذا قال الطبيب بول هاريسون في كتابه "الطبيب في بلاد العرب" (ص٢٧٧): إنَّ المبشِّر لا يرضى عن إنشاء مستشفى، ولو بلغت منافع ذلك المستشفى عَمَّان بأسرها، لقد وُجِدنا نحن في بلاد العرب؛ لنجعلَ رجالها ونساءها نصارى.

ولا ريبَ في أنَّ الطَّبيبَ يستطيع أن يصل إلى جميع طبقات الناس، حتى أولئك الذين لا يُخالِطون غيرَهم، ولذلك قال المبشِّرون: إنَّ بإمكان الطَّبيب المبشِّر أن يصل بتبشيره إلى جميع طبقات المسلمين بواسطة المرضى الذين يُعالجهم، ثم إنَّهم فرضوا أن يكون الطَّبيب المبشِّر نُسخةً حيَّةً من الإنجيل؛ بإمكانه أن يُغيِّر الذين حوله، ويجعل منهم نصارى حقيقيِّين، أو أن يترك في نفوسهم أثرًا عميقًا على الأقل؛ والمبشِّرون يصرِّحون بذلك:

كتب س. ا. موريسون في "مجلَّة العالم الإسلامي" التَّبشيريَّة يقول: نحن متَّفقون بلا ريبٍ على أنَّ الغاية الأساسيَّة من أعمال التَّنصير بين المرضى الخارجين في المستشفيات أن نأتيَ بهم إلى المعرفة المنقِذة؛ معرفة ربِّنا

يسوع المسيح، وأن نُدخِلَهم أعضاءً عاملين في الكنيسة الحيَّة.

يقول رشتر: في هذه المناسبات من التَّطبيب في مُستوصَف أو مستشفى، يمكن للطبيب أن يخاطبَ المسلمين بكلام كثير، لو سمعوا بعضَه في مكان غير المستشفى، ومن شخصٍ غير الطبيب لامتلؤوا غيظًا وغضبًا.

وقالت إيراهاريس تنصح الطبيب الذاهب بمهمَّة تبشيريَّة: يجب أن تنتهزَ الفرصة؛ لتصلَ إلى آذان المسلمين وقلوبِهم، فتكرِزَ لهم بالإنجيل، إيَّاك أن تضيِّع التَّطبيب في المستوصفات والمستشفيات، فإنَّه أثمنُ تلك الفرص على الإطلاق، ولعلَّ الشيطان يُريد أن يفتنك، فيقول لك: إنَّ واجبك التَّطبيب فقط لا التَّبشير، فلا تسمع منه.

هكذا يدأب المبشِّرون في نشر النَّصرانيَّة، ووراءَهم الجمعيَّاتُ والأثرياء، والحكومات أيضًا.

أمَّا واجبُ المسلمين شعوبًا وحكومات، وأمَّا واقعهم فأمرٌ يدعو للغرابة! فمتى يهبُّون من غفوتهم الطويلة؛ ليكافحوا الأخطار المُحدقة بهم من كلِّ جانب؟!

تقوية الموادِّ الدِّينيَّة[1] في المدارس

هذه المملكة لها طابعٌ خاصٌّ، وأوضاعٌ متميِّزةٌ عن أكثر دول العالم، بل وحتى دول الجامعة العربيَّة.

وللأوضاع المغايرة اعتبارٌ يأخذ به المسؤولون، ويقدِّره الآخرون، وإنَّ هذه المملكة حين تسلك مسلكًا مغايرًا لما تقرُّ دول عديدة وصديقة، فليس في ذلك أيَّةُ غرابة، بل هذا هو المَنطِق والرأي الصائب.

ولو أنَّها أغمضت عينيها، وسارت تلقائيًّا مع غيرها، وظلَّت (إمَّعة) - لوقعت في هُوَّة سحيقة، قد لا تنهض منها إلى الأبد.

ومن واجب المسؤولين أن يَستفيدوا من أخطاء الآخَرين، الذين أُعجِبوا بما جاء عن طريق أوربَّا باسم الحضارة والرُّقي، دون أخذ اعتبار بالفوارق، وكانتِ النتيجة تخبُّطًا وارتباكًا مضحكَين.

ولو أنَّ الناحية التعليميَّة هي الأخطر، والأشدُّ

(١) نُشرت في "جريدة القصيم" العدد (٧٣).

حساسيَّة، ومن ثَمَّ فإنَّ من الواجب التثبُّتَ فيما يُؤخذ من نُظم وبرامج، وأن يُمحَّص تمحيصًا دقيقًا؛ ليؤخذَ الصالح، ويُنفى ما سواه، فهذه البلاد قد رضيَت بأن يكون حُكمها القرآن، فلا ترضى بالتحاكُم إلى القوانين، ولا ترغب أن تنصرفَ عن دعوة الإسلام السَّمْحة إلى النُّعَرات والدَّعَوات الزائفة، أو الوطنيَّات والقوميَّات التي لا تهتمُّ بالدِّين؛ ولذا فإنَّ تقوية الموادِّ الدِّينيَّة، واعتبارها موادَّ أساسيَّةً في جميع مراحل الدراسة، والاهتمام بها - هو من أوليَّات الواجبات على المسؤولين في وزارة المعارف، وغيرها من الدوائر والمؤسَّسات الثقافيَّة.

وإن كانت هناك فِئاتٌ كثيرة في الخارج - ولا سيَّما متعصِّبو النَّصارى وتلامذتهم والملحدون - لا يُعجبهم هذا العمل، فلا بدَّ من الصمود أمامهم، وسدِّ جميع الثُّغَرات التي يسعَون جاهدين للوُلوج منها، حتى وإن قالوا: أنتم رجعيُّون، وجامدون، وأنتم تمثِّلون إنسانَ القرون الوُسطى، أو عصور الظلام.

وبهذه المناسبة فإنِّي أُبدي هنا ملاحظة، وإن كانت يسيرة، إلَّا أنِّي أودُّ إبداءها، وأرجو أن تجدَ التنفيذ من

المسؤولين، وملاحظتي هي: حول الدِّراسة والامتحان في شهري رمضان، وذي الحِجَّة، وإنِّي أرى أن يُجعل هذان الشهران عُطلةً دائمة في جميع السِّنين، وألَّا يكون فيها دراسة ولا امتحان لجميع المدارس، ابتدائيَّة كانت أم ثانويَّة أم عالية، ومن الواضح أنَّ شهر رمضان شهرٌ ينبغي أن يتفرَّغ فيه المسلِم لدراسة القرآن، ومراجعة تفاسيره، وتفهُّم معانيه، والحرص على حِفظه ممَّن لا يحفظه؛ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ وبالسَّلف الصَّالح الذين كانوا يتفرَّغون في رمضان لتلاوةِ القرآن، والعناية به.

أمَّا شهر ذي الحِجَّة، فهو شهر الحَجِّ، وينبغي فيه إفساح المجال للطالب وللمدرِّس؛ ليتمكَّنَ من الحَجِّ إذا كان يرغب، ففي ذلك تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى.

أمَّا إذا جُعِلَ في هذا الشهر دراسة أو امتحان، فإنَّ في ذلك تعويقًا عن الحَجِّ، وقد يكون المسؤولون في وزارة المعارف راعَوا توحيدَ الزمن الدراسيِّ مع البُلدان العربيَّة، ولكن الأمر الذي يجب أخذُه بعين الاعتبار ليس هو مراعاةَ دول عربيَّة، ولكن مراعاة أوضاع البِلاد وطريقتها في الحياة، والنحو الذي اختارت سلوكه،

وبالتالي: التعاون على البِرِّ والتقوى.

هذا، وليس بخافٍ أنَّ مناهج الدِّراسة في بعض البلاد العربيَّة قد خطَّطتها دول الاستعمار إبَّان استعمارها لتلك البلاد، أو اقتبسها تلامذةُ الغرب، دون مراعاةٍ للأحوال والأوضاع.

حاربوا هذه الصُّحف[1]

إنَّ مَن يتصفَّح المجلَّاتِ والجرائد التي تزخر بها المكتباتُ التجاريَّة، يلاحظ أنَّ عددًا كبيرًا منها من مجلَّات وجرائد هي من نوعٍ رخيصٍ مُبتذَل، لا يصحُّ أن يُسمحَ بدخوله هذه البلاد، التي ما تزال محافظةً إلى حدٍّ ما، ولا تزال تعلن أنَّها تحكُم بالشريعة الإسلاميَّة، وتعتزُّ بأنَّها هي الوحيدة في العالَم - بما فيه المنتسبون للإسلام المحكِّمون للقوانين الوضعيَّة المنافية للشريعة - تعتزُّ هذه البلاد بأنَّها تُقيم حدَّ الزِّنى والخمر والسرقة... إلخ، غيرَ عابئة بالحملات الكلاميَّة التي يشنُّها الصَّليبيُّون وأذيال المستعمرين.

إنَّ بلادًا هذه حالها لا يَليق أن تَسمح بدخول تلك المجلَّات والصُّحف الماجنة، التي تَفنَّن أولئك الخُلعاءُ في جعلها جذَّابةً مغرية، ومثيرةً للغريزة الجنسيَّة، وداعيةً للانحلال والرَّذيلة، إنَّها تحمل السُّمَّ الزُّعاف وتنشر الصور

(١) نُشرت في "مجلة راية الإسلام" العدد الثاني، محرَّم ١٣٨٠هـ.

العارية وأشباه العارية لمن يدعونهنَّ نجوم السينما، وفاتناتٍ وملكاتِ الجمال، والتعليقات الماجنة الإباحيَّة، وغيرها من قصص الغرام والحبِّ والهُيام، وألوان الانحطاط والسَّفالة.

كلُّ هذا وغيره تزخَر به أمثالُ تلك الصُّحف والمجلَّات التي تصدر من بعض البلاد العربيَّة، ثم تجد السوقَ الرائجة في بلادنا، دون أن تُوقفَ وأن تُعادَ من حيث أتت.

إنَّ الناظرَ في حال هذه الصِّحافة، يستشعر أنَّ غزوًا مُنظَّمًا من أخطر أنواع الغزو، وأشدِّها فتكًا، غزوًا ثقافيًّا للأفراد والجماعات، للشباب والشابَّات، إنَّه غزوٌ إباحيٌّ وإلحاديٌّ.

إنَّني كلَّما تأمَّلتُ وضع هذه المجلَّات والصُّحف، وانتشارها في هذه البلاد أزدادُ عجبًا واندهاشًا: كيف لا تُرَدُّ من حيث أتت، ويُقال لأهلها: هذه بضاعتكم رُدَّت إليكم، وأنتم أحقُّ بها؟!

أنا لست أدري، هل هذه الصُّحُف تمرُّ على مراقبي الكُتب والصُّحُف، ثم يسمحون بدخولها، ويُسهِمون في

نشرها بإذنهم وموافقتهم على انتشارها؟! أم أنَّها تمرُّ من طريق خاصٍّ لا يعلم به أولئك المراقبون؟! ثم هل من حقِّ المراقب أن يقتصرَ في مراقبته على ما يُعرَض عليه فقط؟ أم أنَّ وظيفته تتعدَّاه إلى مراقبة المكتبات، وفيهم مَن همُّه الرِّبح المادِّي، مهما نتجَ عن تصرُّفه من مفاسدَ وانحلال، ونشرٍ للرَّذيلة، ومساعدة على إفساد الأخلاق؟! إن كان ذلك فهو عجب!

أمَّا إن كان السَّماح لها يتعلَّق برأي المراقب، وموكولًا إلى حُسن نظره، وقد رأى أن لا ضررَ من السَّماح بأمثال هذه المجلَّات الخليعة، والصُّحف الدَّاعرة، فإنَّه ينبغي أن يُعادَ النظر في هذه الثِّقة، وفي مناقشة أصحاب ذلك الرأي.

أمَّا إذا كان هناك أمرٌ بعدم التعرُّض لمثل هذه الصُّحف - وهو ما لا نظنُّه - فليَعلم الجميع أنَّ الواجبَ الدِّينيَّ والأدبي، وما يُمليه الضمير الحرُّ، والمصلحة العامَّة، ومقتضى القيام بالأمانة، وأدائها على وجه صحيح - إنَّ هذه الأشياء كلَّها تقضي بمنع هذه الصُّحف منعًا باتًّا، وإرجاعها من حيثُ أُرسلت - غير مأسوفٍ عليها -

ولا ينبغي أن يكونَ للمجاملة والمداراة في ذلك أيُّ تأثير، فإنَّ المصلحةَ العامَّة أهمُّ بكثير، والواجب الدِّينيَّ والأدبيَّ أدعى إلى التقديم من إرضاء حَفنة لا تحترم مشاعرَ المسلمين، ولا يهمُّها مصلحةٌ عامَّة، وإنَّما هي تسير وراء مصالحَ شخصيَّة.

وكثيرٌ من تلك المجلَّات هي تُموَّل من مؤسَّسات تبشيريَّة، ومن سفارات دول متعصِّبة على الإسلام والعرب، وتَوَدُّ أن تقضيَ على الإسلام والمسلمين في طَرفة عَين، ومن ثَمَّ فهي لا تفتأ تعمل كلَّ وسيلة لتحطيم المسلمين، والقضاء عليهم ماديًّا ومعنويًّا.

إنَّها كلمةٌ مخلصةٌ نقولها صريحةً بدافع من غَيْرَة، وإن أسخطَت بعضَ ذوي الأطماع، الذين لا يعبؤون إلَّا بمصلحتهم الذاتيَّة، غير مكترثين بما تجرُّه من مفاسد، وما ينتج عنها من أضرار[1].

(١) نُشرت في "مجلة راية الإسلام" في شهري ربيع أوَّل وثاني ١٣٨١هـ.

حرمة مال المسلم[1]

لقد عُنِيَ الإسلام عنايةً عظيمةً بالمحافظة على أموال المسلمين، وأمرَ بصيانتها، وحرَّم التعدِّيَ عليها، وقُرنت الأموال بالأنفس في مواضعَ كثيرة من القرآن الكريم؛ فأمرَ بالجهاد بالأموال والأنفُس في سبيل الله، ونظَّمَ الأموال تنظيمًا سليمًا؛ فجعلَ في المال زكاةً حقًّا معلومًا للفقراء والمساكين وغيرهم، ممَّن ذُكروا في النصوص القرآنيَّة، والأحاديث النبويَّة، وجعلَ فيها حقوقًا مُعيَّنة معلومة، وحرَّمَ التعدِّيَ على أموال الناس بغير حقٍّ، وعظَّم جريمة السرقة، فجعلَ عقوبتَها القطع؛ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

ونهى عن الغَصْب والنُّهْبَة والخيانة، ووبَّخَ من فعلَ ذلك، وجعلَ له عقوبة رادعة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ

(١) نُشرت في "مجلة قريش" العدد (٢٣)، في ١٦/ ١٠/ ١٣٧٩هـ.

أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ [البَقَرَة: ١٨٨].

وقال النبيُّ ﷺ في خُطبته يومَ النَّحر في حجَّة الوداع: «إنَّ دماءكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ، كحُرْمة يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا، حتى تلقَوا ربَّكم، ألَا فليُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ»؛ رواه مسلم وغيره.

وعن عبد الله بن عمر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُمِرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، ويُقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عَصَموا مني دِماءَهم وأموالَهم، إلَّا بحقِّ الإسلام، وحسابُهم على الله تعالى»؛ رواه البخاريُّ ومسلم.

وعن أبي هريرة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كلُّ المسلِم على المسلم حرامٌ: دمُه، ومالُه، وعِرضُه»؛ رواه مسلم.

وعن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كان عِندَه مَظْلِمَةٌ لأخيه فليتحلَّلْ منها، فإنَّه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا دِرهَم، من قبل أن يُؤخَذَ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيِّئات أخيه، فُطِرحَت عليه»؛ رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: جاءَ رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن جاء رجلٌ يريد أخذَ مالي؟ قال: «فلا تُعطِهِ مالَك»، قال: أرأيتَ إن قاتَلَني؟ قال: «قاتِلْه»، قال: أرأيتَ إن قتلَني؟ قال: «فأنتَ شهيد»، قال: أرأيتَ إن قتلتُه؟ قال: «هو في النَّار»؛ رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قُتِلَ دونَ مالِه فهو شهيد»؛ متَّفق عليه، وفي لفظٍ: «مَن أُريدَ مالُه بغير حقٍّ فقاتلَ فقُتِل، فهو شهيد»؛ رواه أبو داود، والترمذيُّ وصحَّحه.

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَن قُتِلَ دونَ دِينه فهو شهيد، ومَن قُتِلَ دونَ دَمِه فهو شهيد، ومَن قُتِلَ دونَ مالِه فهو شهيد، ومَن قُتِلَ دونَ أهله فهو شهيد»؛ رواه أبو داود، والترمذيُّ وصحَّحه.

وعنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن أَخَذَ شِبرًا من الأرض ظُلمًا طُوِّقَه من سبع أَرَضين»؛ متَّفق عليه.

وعن السائب بن يَزيدَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يأخذُ أحدُكم عصَا أخيه لاعبًا ولا جادًّا، فمَن أخذَ عصا أخيه فلْيرُدَّها إليه»؛ رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وعن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يَحِلُّ مالُ امرئٍ مسلم إلَّا بطِيبِ نفسِه»؛ رواه الدارَقُطني.

والنصوص من القرآن والسُّنَّة في هذا المعنى كثيرة جدًّا، حتى إنَّ صيانة مال المسلم وحُرمةَ التعدِّي عليه أمرٌ معلوم لدَى كلِّ من له معرفة بالشريعة، بل إنَّ ذلك معلومٌ لدَى كلِّ مسلم.

وحُرمة التعدِّي عليها شاملٌ لأخذها غَصبًا، أو أخذها حِيلةً واختلاسًا، كما أنَّ تحريم ذلك باقٍ حتى وإن رُوِّج لأخذها بالدِّعايات البرَّاقة، والشِّعارات المشعوذة، فالحُكم واحد، فإذا سُمِّيَ أخذُها تأميمًا أو اشتراكيَّة، فإنَّ ذلك لن يُغيِّر من الحقيقة شيئًا، ولن يجعلَها مباحةً لذلك الأخذ، كما أنَّ مَن سمَّى الخمرَ بغير اسمها لا تصير له حلالًا.

والعجبُ أن تنطليَ مثلُ هذه الأفكار المستوردة من الشيوعيِّين والملاحدة على بعض الناس، فيهتف مع أولئك، ويَنسى نصوصَ الشريعة الواضحة التي فيها صلاحُ الدِّين والدُّنيا، وفيها النجاح والفلاح، وإذا لم يوافقهم العلماء على آرائهم رَمَوهُم بالجمود والرجعيَّة، والسَّير في ركاب الرأسماليِّين، بل لقد تعدَّى أمرهم إلى أن اتَّهموا

علماء الدِّين بأخذ الرِّشوة حين لم يوافقوهم على "نزغاتهم" وأهوائهم!

والعجبُ أن يَدَّعيَ أولئك أنَّ في النصوص الشَّرعيَّة ما يؤيِّد اعتداءَهم، ويشبِّهون على البسطاء بأشياءَ لا حُجَّة لهم فيها! فقد سمعنا من يستدلُّ بحديث: «الناسُ شُركاءُ في ثلاث» على أخذ المصارِف والعقارات والشركات وغيرها، ممَّا ليس له ذِكرٌ في هذا الحديث، مع أنَّهم لم يعملوا بالحديث، ولم يجعلوا الناسَ شُركاءَ في الثلاث المذكورة فيه!

وسمعنا بعضَهم يحتجُّ على أفعالهم المنافية للإسلام بأنَّ الإسلام فرضَ الزكاة في الأموال، وهم لم يعملوا بالنصوص الواردة في الإسلام في الزكاة، فلم يأخذوا الزكاة، ولم يصرفوها في مصارِفها الشرعيَّة، وإنَّما أخذوا الضرائبَ، وصرفوها حسَبَ رغباتهم، ثم إذا كان الإسلام قد فرضَ الزكاة، فأيُّ حُجَّة لهم في تأميم الأموال، وأخذها بعدَ إخراج الزكاة منها، لولا أنَّها مغالطةٌ مكشوفة؟!

إنَّ الإسلامَ بريءٌ ممَّا نسبَه إليه هؤلاءِ المُغرِضون،

وها هي نصوصُ الإسلام تدحَض مزاعمَهم، وتُبطِل افتراءاتِهم.

إنَّنا نعلم أنَّ هؤلاءِ لهم مقاصد، قد تبدو حينًا، وقد يحاولون تغطيتَها حينًا؛ وهي أنَّهم يُريدون أن يستبدلوا أفكارًا ونظمًا مستمدَّة من الخارج بالإسلام وتعاليمه.

إنَّهم يريدون أن يقولوا: إنَّ الإسلامَ لم يعُد صالحًا لاحتياجات الأمَّة ورغباتها؛ ولذا فهم يستعيضون عنه بمبادئِ الشيوعيَّة والإلحاديَّة، فهل أدركَ المخدوعون مراميَ أولئك الذين يسوقونهم إلى الهاوية السَّحيقة؟

إنَّها كلمةٌ صريحةٌ نقولها دفاعًا عن الإسلام، حتى وإن غَضِبَ الغاضبون، وقالوا: أنتم رجعيُّون وجامدون.

مدنيَّة الرجل الأبيض[1]

الرجلُ الأبيض الذي جاء من أوربَّا وأمريكا ليُمَدِينَ الشعوب المتخلِّفة، ويبُثَّ أنوار المعرفة، ويرسلَ إشعاعاتِ الحضارة في البلاد المتأخِّرة، كما يحلو للبيض - الذين يمثِّلون دَورَ السيِّد المتعاظِم في هذا العصر - أن يعزفوا هذه المعزوفات، وأن يتبجَّحوا بها في كلِّ آن.

نعم، جاءَ في أثواب متباينة، ولَبِسَ لبوساتٍ متشابهة، وغيرَ متشابهة، أقبلَ يُباهي بعلمه وحضارته، ويَظهر في ثوب القوَّة حينًا فيفتِل أعضاده، ويحرِّك عضلاتِه؛ ليثبتَ أنَّه قويٌّ، فعليهم أن يخضعوا له، ويأتي حينًا في دَورٍ آخرَ ليلبسَ مُسوحَ الرُّهبان، وليذرِف دموعَ التماسيح، ويتباكى على إخوانه في الإنسانيَّة المعذَّبة، فيُعلن أنَّه يريد مساعدتَهم في سبيل الله، لا يُريد جزاءً ولا شُكورًا، وتنطلي ألاعيبه البهلوانيَّة على بعض المخدوعين فيظنُّها حقًّا، ويبلغ به حسنُ النيَّة إلى درجة الطَّاعة العمياء، وتَلِجُ

(١) نُشرت في "صحيفة القصيم" العدد؟ (في ٢٣/ ٣).

إلى عمق الخيانة عندَ بعض ضعفاء النفوس والمغرورين.

ولكنَّ سرَّ حياة الرجل الأبيض التي مثَّلها في ظروفٍ - خاصَّة في آسيا وأفريقيا - لم تَعُد تصلح لهذا الوقت؛ فقد تبدَّلت الأيَّام، وتغيَّرت الظروف، وتبلورت النفوس، ففهمتِ الأوربيَّ المتجبِّر.

إنَّه يزعم أنَّه جاء يُخلِّص الشعوب من متاعبها، ويخفِّف من بلوائها، ولكنَّه لا يقول: إنَّه جاء يَسرق خيراتِ بلادهم، ويملأ بها جيوبَ أبناء (التايمز) و(السِّين) و(المِسيسبِّي)، ولا أنَّه يستنزف الثرواتِ الهائلةَ من بُلدان متخلِّفة - في زعمه - ليعمُرَ بها القارَّات المزدهرة، ولا أنَّه يُخفي مطامعَه وراء أقنعة مُزيَّفة، كثوب الرِّياء.

جاءَ ليعلنها حربًا شعواءَ لا هَوادةَ فيها، حربًا بشعةً تحمل كلَّ صنوف الأسلحة المدمِّرة؛ فبجانب حربٍ اقتصاديَّة حربٌ ثقافيَّة، ومع الدبَّابات والقنابل قساوسةٌ يرفعون علمَ الصَّليب، ويحصُدون بأسلحتِهم الفتَّاكة الآلاف من الأبرياء، فلا يتحرَّك لهم ضمير، ولكن دموع التماسيح والشفقة المصطنعة هي أكثرُ ما يفعلون.

وتكشَّفت حقيقةُ المتحضِّر الأوربيِّ لتبدوَ حقيقة شوهاء

منفِّرة، وعَرَكها مواطنو إفريقيا وآسيا، وعَلِموا أيَّ حضارة ومدنيَّة جاء بها الرجل الأوربي، في الجزائر حيث قَتَلوا ما يَزيد على المليون نَسمة، وفي فلسطين حيث شرَّدوا مليونًا من العَرَب، وفي الهند حيث عَمِلت إنكلترا أعمالَها الإجراميَّة، ورضخت تحت سلاح لم تقوَ على مقاومته، وفي أمريكا حيث يُباد أهلُ البلاد الأصليِّين ويُطارَدون، وتعمل الوسائل الكثيرة لإبادتِهم، إنَّهم الهنود الحُمر، وأين هم الآن؟ وكم عددُهم؟ وهم في بلاد يُقال: إنَّها أرقى بلاد مُتَمَدِينَة.

وفي أمريكا - أيضًا - يُضطهد الزُّنوج ويُعذَّبون، ويُقتلون من غير ما جُرم، إلَّا أنَّهم سُود! ويُحرَّم عليهم مخالطة البيض في المجتمعات: في المطاعم والمدارس، والمساكن والأحياء!

يُشنق الأَسوَد، فيذهب دمُه هدرًا، كما لو كان قتلُه قتلَ حيوانٍ عجماويٍّ تافه، ويَرُومون أن يُطبِّقوا نظريَّة: مكان الملوَّن فوق رؤوس الأشجار (الإبادة الجماعيَّة).

وفي البلاد المتخلِّفة: أهلُها يصلحون مادَّةً وطُعمًا للحروب، وأرضُهم قواعد حربيَّة للرجل الأبيض، أمَّا

أهلُها فلهم الجوعُ والحربُ والإبادة.

الإنكليز في كينيا يَدفنون الناس أحياء، ويُبِيدون مَن يُسمُّونهم (الماوماو)، وإمعانًا في التضليل يصوِّرونهم صورًا مفزِعة يبرِّرون بها طغيان الأبيض المتحضِّر، ويُلقون بالمساكين من الطائرات التي صنعَها المتحضِّرون، يُلقون بهم أحياء؛ لأنَّهم لم يطيعوا أوامرهم التعسُّفيَّة، ولم يخضعوا لعبوديَّتهم.

وفي (هنج كنج) عَرَفَ الصِّينيُّون الرجلَ الأبيضَ ينشر الأفيونَ الأسوَد في الصِّين، ويَشنُّ الحربَ إذا مُنعَ الأفيون والحشيش من دخول البلاد، ومن الفَتك بالشعب.

وعرفَ العراق ومصر، ولبنان وسوريَا، وقُبرص وتونس، ومُرَّاكش وغانا، وغينيا ونيجيريا، وجنوب الجزيرة العربيَّة، وغيرها، وغيرها - عَرَفوا الرجل الأبيض الذي يُخفي في المَخمَل يَدَينِ من حديد.

فلم يعُد يُصدَّق نُبل الرجل الأبيض وشهامته، وحبُّه لخير الشُّعوب جميعًا، لقد رأى تاريخًا أسود لذلك الأبيض، رآه غارقًا في الدَّماء وأشلاء الضحايا من الأطفال والنِّساء والشيوخ، والأُباة المدافعين عن حقوقِهم المسلوبة.

وتبرُز صورةٌ من صُور مدنيَّة الرجل الأبيض الكثيرة في جنوب إفريقيا، جاء حَفنةٌ من البِيض ممَّن نَفتهم بلادهم، ومن المغامرين واللصوص، فتظاهَروا بأنَّهم جاؤوا يريدون طلب الرِّزق، ومساعدة الأهلِين، ثم زادَ العدد، ووردَ السِّلاح، وراحَ القويُّ يستعرض عضلاتِه المفتولة، التي كانت قبلُ أرقَّ من الحرير، وبدتِ الحقيقة لأهل البلاد التي غَنِيَ منها الأبيض، وملأ أكياسه، وازدهرت بلاده.

أهل البلاد يُضطهدون من الرجل المُتَمَدِين، ويَفرِض عليهم في بلادهم قوانينَه الصارمةَ الجائرة، ويُحكم عليهم العزلةَ والوحشيَّة والتمييز العنصري؛ لأنَّهم في رأي المدنيَّة الراقية من جنس رديء!

وإن رامَ ابنُ البلد الأصليُّ أن ينتقد أو يعترضَ، قَتلَته دبَّابات البِيض، وصوِّبت إلى صدره رشَّاشاتُهم، والأمر من البساطة بحيثُ لا يكون جديرًا بالتفكير فيه، أو الاكتراثِ لشأنه في نظر السادة اللصوص، ومع هذا فلا زالت بقيَّة من غفلة، وكثير من سذاجة، إذ نقول: إنَّ هيئةَ الأُمم، أو مجلس الأمن يُساعدانِ مظلومًا، ويُناصران مضطهدًا، وإلَّا فما معنى تفجير فرنسا للقنابل الذَّرِّية بين سكَّان الجزائر،

وأخطارها تهدِّدُ أقطارًا كثيرة؟!

وما معنى أن يُقتل في يومٍ واحد في جنوب إفريقيا مئاتٌ من الإفريقيِّين أبناء البلاد الأصليِّين، ويُجرح عددٌ كبير منهم على يدِ المستعمرين، ثم لا يثور مجلسُ الأمن، ولا تثور هيئةُ الأُمم، ولا يُحرِّك الرجل الأبيض المُتَمَدِين في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، وأمثالها إلَّا دموعَ التماسيح؟!

إنَّها حضارةٌ زائفةٌ يتشدَّق بها الرجل الأبيض؛ ليُمعنَ في غروره وطُغيانه، ويُبيدَ أهلَ البلاد الأصليِّين بالجملة، إنَّ هذا يُذكِّرنا بقول الشاعر:

إلى اللهِ نَشكُو الأَمرَ من مَدنِيَّةٍ
تَعارَضَ في أَوصافِها الكِذْبُ والصِّدقُ
وكم قد سَمِعنا ساسَةَ الغَربِ تَدَّعي
بأشياءَ مِن بُطلانِها ضَحِكَ الحَقُّ
فهُم مَنعُوا رِقَّ الأَسِيرِ وإنَّما
جَازُوا لَهُمْ أن يَشمَلَ الأُممَ الرِّقُّ

إنَّ قضيَّة كثيرين من سكَّان آسيا وإفريقيا من الرجل

الأبيض هي قضيَّةُ حياة أو موت، إنَّها دِفاعٌ عن الكرامة، وعن الثروة، وعن الحياة أيضًا.

فهل يبقَى مجالٌ للشكِّ في نوايا الرجل الأبيض بعدَ ذلك؟! وهل يرضَى عاقلٌ أن يسيرَ في رِكابه؟! وأن يغشيَه بريقُ مدنيَّته الزائفة، وأقواله الجوفاء؟!

ولله في خَلْقه شؤون!

الجزائر والحرب الطاحنة [١]

ستُّ سنوات متواصلات، والحربُ في الجزائر لم تهدأ، والجزائريُّون البواسل يُقيمون في كلِّ يوم براهينَ البطولة، التي تُثير الإعجاب من العدوِّ قبل الصديق، وحتى تركوا في الدُّنيا دويًّا هائلًا، ومجدًا رائعًا كأنَّما عناه أبو الطيِّب في قوله:

وتَركُكَ في الدُّنيا دَوِيًّا كأنَّما
تَداوَلُ سَمعَ المَرءِ أَنمُلُهُ العَشرُ

لم يكن في حرب الجزائر تكافؤٌ من الناحية المادِّية، بل كان صِراعًا بين قوَّة مادِّية غاشمة لا تعبأ بحقٍّ أو خُلق، حكمها شريعةُ الغاب، وبين مجاهدين قلَّ عددُهم وعُدَّتهم، ولكنَّهم لم يَهِنوا، ولم يستسلموا للطُّغيان، وإنَّما ناضَلوا بقوَّة إيمان، وثبات جَنان، ودفاعًا عن حقوق مساوية، وذودًا عن الأعراض أن تُنتهك، لم يتخاذَلوا وقد

(١) ملاحظة: قد يحدث أن نتصرَّف في هذه المقالات بحذف شيء منها، أو إضافة شيء إليها، خلافًا لما نُشرت عليه في الصُّحف؛ وذلك لما اقتضاه المقام، ولكنَّه تعديل لا يتنافى وجوهرَ الموضوع. (المؤلِّف).

رأَوا من الوحشيَّة وصنوفِ التَّعذيب ما لا يُصدِّقه العقل، بل ازدادوا إصرارًا على نَيل مطالبهم الشريفة، وحقوقهم العادلة، فسجَّلوا الصفحاتِ الناصعةَ الوضَّاءة في التاريخ الحديث.

إنَّهم لم يحاربوا جيشَ فرنسا المزوَّدَ بأنواع الأسلحة الحديثة الفتَّاكة، والمعدَّات القويَّة الرهيبة وحدَه - وهو يربو على نِصف مليون جندي - وإنَّما صمدوا أمامَ المستوطنين الفرنسيِّين والأوربيِّين المسلَّحين، وحاربوا مع هؤلاء جميعًا حِلفَ الأطلسيِّ بكامله، بطائراته ودبَّاباته، وجنوده ومساعداته المختلفة، ذلك الحِلف المشؤوم الذي يُناصِر فرنسا الباغية، ويضع تحتَ تصرُّفها قواتِه الضخمة؛ لتُنكِّل بالأحرار المجاهدين، ولتُمعنَ في حرب الإبادة التي تشنُّها في الجزائر.

ووقفَ المجاهدون الجزائريُّون صامدين، رغمَ طائرات أمريكا التي تمدُّ بها فرنسا، ورغمَ المعونات الكثيرة، والقروض العديدة التي لا تفتأُ أمريكا تزوِّدُ بها فرنسا تباعًا، لقد خَسِرَ الجزائريُّون الكثير، ولكنَّهم قد صمَّموا على المُضيِّ حتى تستقلَّ بلادهم، ويطردوا الفرنسيِّين المعتدين.

إنَّ فرنسا قد قتلت ما يَزيد على مليون جزائريٍّ في حربها البَشِعة، ووضعت في معسكرات الاعتقال ما يَزيد على مليونين أو ما يسمُّونها (معسكرات التجمُّع) التي يعاملون فيها الجزائريِّين أقسى معاملة.

هذا إلى العدد الكبير مِن المشرَّدين واللاجئين في تونس والمغرب وغيرهما، لقد كانت بطولات الجزائريِّين مضربَ المثل، ولقد أعادوا بها ذكرياتٍ قديمةً سجَّلها التاريخ بإعزاز، وفي حروبٍ كانت القلَّة فيها من المسلمين تنتصرُ على الكَثرة الكاثرة من أعدائهم، حتى كان حديثُها أشبهَ بالأساطير، وحتى كان البعضُ يُشكِّكون في صحَّة الروايات فيها.

وها هو التاريخ يُعيد نفسَه، وها هم الجزائريُّون أحفادُ أولئك الشُّجعان المغاوير يُقيمون الدَّليلَ تِلوَ الدَّليل على أنَّ التفوُّقَ في العدد والعُدَّة ليس ضامنًا للنصر دائمًا، وإنَّما هناك اعتباراتٌ أخَرُ، أهمُّها الإيمان الذي يأتي بالعجائب والخوارق.

وكما امتشقَ الجزائريُّون الحُسام، وثبتوا في الحرب الساخنة، فقد وقفوا إزاءَ حرب الأعصاب، والدِّعايات

المضلِّلة، وخداع ديغول وأضرابه من ساسة فرنسا ومناوراتهم، فلم يُلقوا السِّلاح كما طلب ساسةُ فرنسا المستعمرون؛ لينتظروا انتخاباتٍ مُزيَّفةً تُجرَى تحت الحديد والنار.

ولم يكترثوا بتضليل ديغول عندما يُريد تقسيم الجزائر، وتفتيت وَحدتها؛ لتكونَ لُقمَةً سائغةً لمطامعه.

ولم ينخدعوا بوعد تقرير المصير المرتبط مع فرنسا (الأمِّ المنحوسة)، ولم يكن الجزائريُّون أمامَ خَصمٍ شريفٍ يرعى للعهود والمواثيق حُرمة، بل كان خَصمًا غادرًا لا يحترم العهودَ والمواثيق، ولا يُقاتل جنودُه بشرف، بل يَصبُّون جامَ غضبهم على المدنيِّين العُزَّل، فيقتلون من النِّساء والشُّيوخ والأطفال بلا حساب، ويدكُّون قرًى بكاملها، في الوقت الذي يفرُّون فيه من المعركة مذعورين:

أَسَدٌ عَلَيَّ وفي الحُروبِ نَعامَةٌ
فَتْخاءُ تَنفِرُ من صَفِيرِ الصَّافِرِ!

ولقد شَهِد العالَم كيف فرَّ الجيش الفرنسيُّ على ضخامته واستعداده أمامَ الجيش الهتلري، لا يلوون على شيء.

وعرَفَهم العالَم في الهند الصِّينيَّة يومَ سقطت (ديان بيان فو) وآبُوا مُجلَّلين بالخِزي والعار، ولم تُجدِهم قوَّاتُهم الضخمة الكبيرة، والمساعدات التي تنهال عليهم من أمريكا وغيرها.

وهذا ما سيكون في الجزائر بإذن الله؛ فسوف تنهزِمُ فرنسا، ولن يقفَ دون طردها معوناتُ أمريكا وبريطانيا وألمانيا، ومؤازراتُ حِلف الأطلنطي.

ولكن مع ذلك يجب أن تعملَ الدُّولُ الإسلاميَّة والعربيَّة وشعوبُهما أعمالًا إيجابيَّة؛ لتأييدِ الجزائر في حربها العادلة، وألَّا نكتفيَ بمساعدات ضئيلة، بل يجب أن نقومَ بمجهوداتٍ جبَّارة، ماديَّة وأدبيَّة؛ نصرةً للحقِّ والعدالة.

أمَّا أن يقفَ المسلمون والعربُ من قضيَّة الجزائر موقفًا سلبيًّا، أو موقفَ المتفرِّج، في حين أنَّ فرنسا بقوَّاتها الضخمة تنال الكثيرَ من المساعدات والتأييد القويِّ من الدُّول الاستعماريَّة، وتشنُّ حملتَها الصَّليبيَّة بلا هوادةَ، فهذا مناقضٌ لكلِّ الاعتبارات، والمفاهيم السليمة.

إنَّ انتصار الجزائر انتصارٌ للمسلمين والعرب في كلِّ

مكان، كما أنَّ خِذلانها - لا قدَّر الله - نكبةٌ على المسلمين والعرب جميعًا.

ولقد طلبت حكومةُ الجزائر أن تُجري انتخاباتٍ حرَّة في البلاد تحت إشراف الأُمم المتَّحدة، وهو مطلبٌ معقولٌ وعادل، ومن واجب الحكومات الإسلاميَّة والعربيَّة تأييدُ الجزائريِّين في تحقيق هذا المَطلَب النبيل.

وقد ظهرت بوادرُ حسنةٌ في مؤتمر وزراء خارجيَّة الدُّول العربيَّة في مَصيف شتُورَة بلبنان، والذي قَرَّر فيه المؤتمر الموافقةَ على مساعدة المتطوِّعين العرب للالتحاق بجيش التحرير الجزائريِّ وغير ذلك، وقد تقدَّمَ نائب رئيس الوزراء في حكومة الجزائر بمطالبِ حكومته لهذا المؤتمر، ومن جملة ما طلبَه: مقاطعةُ فرنسا اقتصاديًّا وثقافيًّا، وسياسيًّا وفنيًّا من قِبَل الحكومات العربيَّة، وعسى أن تستجيبَ الحكوماتُ العربيَّة لهذا الاقتراح.

وأخيرًا: فإنَّ على المسلمين والعَرَب عبئًا جسيمًا، وواجبًا تُجاهَ قضيَّة الجزائر، وإنَّا لنأمُل أن يقوموا بهذا الواجب، وأن يبذُلوا التَّضحياتِ المادِّية والأدبية، وأن يُثبِتوا أنَّهم جادُّون في مساعدة الجزائر مساعدةً فعَّالة، حتى

يكتبَ الله للجزائر النَّصرَ المؤزَّر، وحتى تندحِرَ فرنسا، ومَن يَمدُّون فرنسا، ويُمالئونها على الشرِّ والعدوان.

أهمُّ المصادر

١- شرح الخمسين، لابن رجب.

٢- رياض الصَّالحين.

٣- إيضاح الدَّلالة في عموم الرِّسالة.

٤- الإسلامُ في نظر إعلام الغَرب.

٥- الفروسيَّة، لابن القيِّم.

٦- أوربَّا والإسلام.

٧- الإسلامُ في نظر الغرب.

٨- محمَّد الرِّسالة والرسول.

٩- محمَّد المثل الأعلى، لتوماس كارليل، ترجمة: محمَّد السباعي.

١٠- حضارةُ العرب، للدكتور غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر.

١١- إيقاظُ الغرب للإسلام، للورد هيدلي، ترجمة: إسماعيل حلمي البارودي.

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة	٥
الرِّسالة العالميَّة	١٧
خاتم الأنبياء	١٩
الدِّين الكامل	٢٠
الشَّريعةُ الخالدة	٢٢
المسلمون إخوة	٢٤
الدِّين يُسر	٣٠
شهادةُ المستشرقين	٤٩
شعور من اعتنقوا الإسلام	١١٥
مجموعة من المقالات نشرت (بين عام ١٣٧٥ و١٣٨٠هـ)	١٥١
مقدمة	١٥٣
الذَّبح لغير الله شِركٌ صُراح	١٥٥
حول الطَّبيعة والإنسان	١٥٨
في ضوء الشُّموع	١٦٤
تعقيب	١٦٨

دين القوَّة والعزَّة ١٧٨
تدريب طلَّاب المدارس على استعمال الأسلحة ١٨٥
مشكلة لم تُحل ١٨٨
إسرافٌ وتقتير ٢٠٠
بذَخٌ مَقيت ٢٠٢
وهكذا يمضي العيد ٢٠٥
تنظيم الزَّكَوات ٢٠٩
تمجيد الكسب في الإسلام ٢١٢
بين الشُّيوعيَّة والرأسماليَّة ٢٢١
محاولات دنيئة ٢٢٦
تقوية الموادِّ الدِّينيَّة في المدارس ٢٣٢
حاربوا هذه الصُّحف ٢٣٦
حرمة مال المسلم ٢٤٠
مدنيَّة الرجل الأبيض ٢٤٦
الجزائر والحرب الطاحنة ٢٥٣
أهمُّ المصادر ٢٦١
فهرس ٢٦٣